

الولد و النهر



ترجمة : هنري زغيب

هنري بوسكو

الولد و النهر

تأليف هنري بوسكو

ترجمة هنري زغيب

أرشفة / سرمد العاني



فريق التوثيق
الإلكتروني

فريق التوثيق الإلكتروني

الولد والنهر

ترجمة هنري زغيب

الطبعة العربية الاولى ١٩٩٠

حقوق الطبع محفوظة

الناشر وزارة الثقافة والاعلام - دار ثقافة الاطفال بريد ٨ شباط

العراق - بغداد ص. ب ٨٠٤١

سلسلة مكتبتنا

تصدر عن قسم النشر في دار ثقافة الاطفال

المدير العام: فاروق سلوم

سكرتير تحرير السلسلة: فاروق يوسف

**الولد
والنهر**

المؤلف

ولد هنري بوسكو في آقينيون عام ١٨٨٨ ، من عائلة يتوزع أصلها بين مقاطعة پروقانس وسهل پييمون • وكان والده قصاب حجارة وعوادا •

بعدما أنجز دروسه الثانوية في آقينيون وچرونوبل وفلورنسا ، تخصص باللغة الايطالية وآدابها ، ومارس التدريس في آقينيون وبورج وفيليبثيل •

بدأ يكتب منذ كان في السابعة من عمره ، وصدرت روايته الاولى « پير لامپيدوز » عام ١٩٢٤ ، وفيها بذور المناخ الذي سيطغى على رواياته وقصائده اللاحقة : مناخ السر الممزوج بالواقع اليومي ، والحياة الفلاحية بكل ما فيها من معتقدات سلفية ، وسحر الحياة في مقاطعة البروكانس •

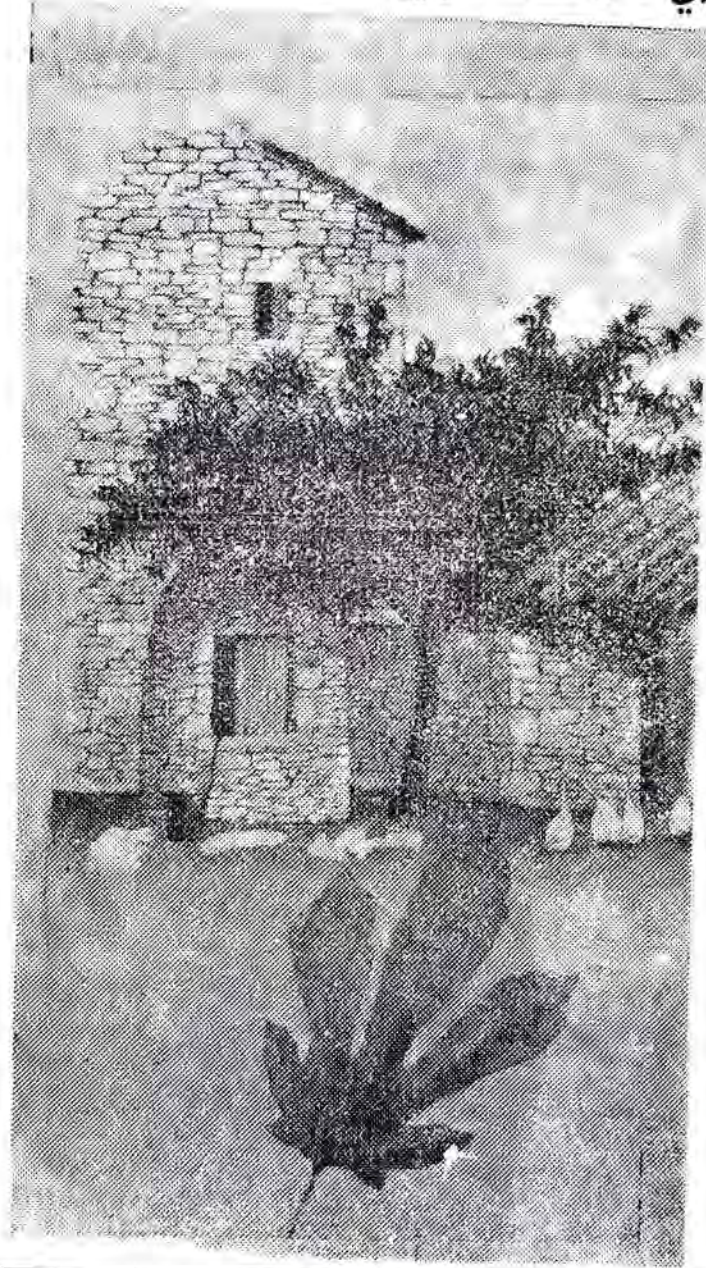
نال هنري بوسكو جوائز عديدة على كتاباته [وهي بلغت نحو ثلاثين رواية ، وكتب عديدة للأطفال ، ومجموعات شعرية] • أبرز تلك الجوائز :

- جائزة رينودو عام ١٩٤٥ *
- جائزة السفراء عام ١٩٤٩ *
- الجائزة الوطنية الكبرى للاداب عام ١٩٥٣ *
- الجائزة الكبرى لادب الفتيان عام ١٩٥٩ *
- الجائزة الكبرى للادب من الاكاديمية الفرنسية عام ١٩٦٨ *
- وهنري بوسكو توفي عام ١٩٧٥ بعد حياة أدبية حافلة *

الفصل الاول التجربة المغربية

(التجربة المغربية)

طفولتي الاولى كانت في الريف ، حيث كنا نسكن منزلا بين الحقول . وكانت حياتنا هائلة في تلك الاكارة(*) ، وتعيش معنا فيها عمة أبي ، وأسمها مارتين .



(*) الاكارة : ارض مستأجرة بطريق المزارعة . تقسم غلتها بين المؤجر والمستأجر .

كانت العمة مارتين امرأة عجوزا ذات شعر كثير الالتفافات ،
وثياب كثيرة الثنايا ، ودائما على وسطها تتدلى مقصات ذهبية .
وكانت متسلطة قوية ، قاسية على الجميع : الاهل ، الكلب ،
البط ، والدجاج . وكثيرا ما كانت تؤنبني لسبب ولغير سبب ،
صباحا ومساء . ومع أنني كنت ولدا هادئا ومطيعا ، لم أكن أنجو
من تأنيباتها اللاذعة . لكنها كانت تحبني كثيرا في سرها ، وتخبيء
هذا الشعور الجارف نحوي ، بتأنيبي لسبب ولغير سبب .

كيفما تلفت حول منزلنا ، لم أكن أرى الا حقولا ، وصفوفا
طويلة من السرو العالي ، وبعض المساحات المزروعة ، واكارتين او
ثلاثا متفرقة كيفما اتفق . منظر رتيب كان يزيد من الحزن
والوحدة في نفسي .

وكنت أسمع من أحاديث العشايا ، خاصة في سهرات الشتاء،
عن نهر وراء ذلك المنظر ، لم أكن رأيته بعد . كان يلعب دورا
مهما في العائلة لما يأتي على مزروعاتنا من خير حيننا وسوء أحيانا .
فتارة يخصب أراضينا ، وطورا يتلف محاصيلها . وهو ، على
ما يبدو من تلك الاحاديث ، كبير وجارف . في الخريف ، مع
الامطار الغزيرة ، تعلو مياهه ويتناهى هدير تدفقها من البعيد ،
وأحيانا تطيح الحواجز والسدود وتعم فوق الحقول المزروعة ،
ثم تسحب مخلقة وراءها الوحل والطين . أما في الربيع ، بعدما
تكون الثلوج ذابت عن قمم جبال الالپ ، فتتدفق مياه أخرى
تطيح كذلك بالحواجز والسدود وتطفو فوق الحقول فتتحول

هذه الى مستنقع واحد كبير • واما في الصيف ، وتحت الحرارة
الشديدة ، فالنهر ينضب تاركا وراءه جزرا صغيرة من الحصى
والحجارة والرمل هنا وهناك •

كل هذه المعلومات اكتسبتها من السمع • فأبي غير مرة حذرني :
— إلب حيثما تشاء • فلن يضيق بك مكان في هذه الحقول •
إنما إياك والتوجه صوب النهر • وأحيانا تضيف أمي :

— في النهر ، يا حبيبي ، حفر عميقة مميتة ، وثعابين على
الطريق اليه بين القصب ، وغجر مخيفون يعيشون على ضفافه •

لم أكن في حاجة الى أكثر من ذلك كي أحلم بالنهر وأفكر به
ليل نهار • وكلما فكرت به ، اعتراني في مفاصلي خوف هائل ،
لكنه لم يكن يلغي رغبتني الشديدة في التعرف الى النهر عن كثب •

بين الحين والآخر ، كان يمر بنا صياد ضخيم الجسم ، قاسي
الملامح ، ثاقب النظرة ، حاد الذكاء • وكان يوحى بالقوة والمرونة
معا • فيداه كثيرتا العقد ، ورجلاه مقرتان ، وأصابعه رشيقة •
أحيانا كنت اشبهه بالظل ، لا صوت له • وحين يصل ، يبادر أبي
الى القول :

— هه ! هذا هو باركابو ، يحمل الينا السمك الطازج •
وبالفعل ، يضع باركابو على طاولة المطبخ سلته الممتلئة سمكا
لمعا يثير إعجابي ، فأروح أتأمل بين الطحالب — بطون السمكات

(*) الشابلة : سمكة تشبه السردين ، تعيش في المياه الحلوة
كمياه النهر •

الذهبية وظهورها المزروقة وزعانفها الشائكة • وكم كنت أفرح
لرؤية بعضها ما زالت تنبض لخروجها من المياه قبل وقت قليل •
وإذ يسأل أبي :

— باركابو ، كيف يمكنك أن تأتي بسمكات جميلة كهذه ؟
يجيب الصياد بنبرة هاربة :

— الله يشفق على الفقراء أمثالي ، وأنا لي يد ماهرة في
الصيد •

ويكتفي أبي بالجواب فلا يستطرد •
ذات يوم ، وكنت في المنزل وحدي ، أطل باركابو ، فجأة
كعادته • كان يحمل على طرف صنارة معقوفة شابلة(*) هائلة
فبادرني :

— هذه لك • خذها • أهبك إياها •
ووضع السمكة على طرف الطاولة ، ثم التفت إليّ بنظرة
غريبة وأردف :

— إن في وجهك ، أيها الولد ، ملامح صياد • هل سبق لك
واصطدت سمكا في النهر ؟
— كلا ، سيد باركابو ، والدائي يحرمان عليّ الذهاب
باتجاه النهر •

فهز بكتفيه وأردف :
— من سوء حظك • لو انك تأتي معي ، لدلتك على مكان
لا يعرفه أحد ، متوغل بين الجزر الصغيرة •

منذ ذلك اليوم ، لم تعد هذه الفكرة تفارقني ، حتى حجت
سعي النوم . ورحت في الليالي أفكر بتلك النواحي المجهولة الجميلة
المتوغلة داخل الغابة على ضفاف الجزر ، حيث لا أحد يصل
إلا براكابو .

في مرات لاحقة ، أراني براكابو شصوصا فولاذية زرقاء
جميلة ، وعددا من قطع الفلين المقصوصة على القياس .
ورحت أعجب براكابو أكثر فأكثر ، رغم ما كان في عينيه
من ملامح حيلة تخيفني . وبسبب هذه الملامح ، أخفيت اعجابي
به ولم أظهره له . وكان كلما جاء الى منزلنا ، أخشاه ، حتى أن
دقات قلبي تزداد كلما سمعت وقع خطواته في فناء المنزل ، وكلما
ذهب أترقبه من جديد . ولم يطل به الامر حتى تنبه الى اهتمامي
به لكنه تظاهر بعدم الاكتراث مما كان يعذبني أكثر . أحيانا كان
يغيب خمسة عشر يوما فأضطرب قلقلًا وتجمع بي رغبة قوية الى
الذهاب باتجاه النهر . لكن خوفي من أبي القاسي كان يردعني .

في الشتاء ، كان البرد يقرس ، والهواء يعوي ، والثلج
يتساقط ، وعبور الريف ضربا من الجنون . لذا يحلو التحلق حول
النار ، بدون الخروج لايام احيانا . أما في الربيع ، فالهواء ناعم
والطقس جميل ، ويحلو الخروج الى الحقول . وكانت رغبة
الخروج تجمع بي كما بسواي . لكن الخوف من الابتعاد كان
ينذرني بعاقبة وخيمة ، فأرتدع . إنما كنت أشعر أنني ، ذات يوم ،
بأغامر وأتوغل صوب النهر . وبالفعل رحت أترقب الفرصة
المناسبة .

الى أن حانت ذات يوم ، كما يلي :

اضطر والدادي مرة الى التغيب عدة أيام ، فبقيت وحدي مع العمة مارتين . صحيح أنها ، كما قلت ، متسلطة قاسية ، لكنني حين أمسي وحدي معها ، تتاح لي كل الحرية ، لأنها هي تشعر بحريتها أيضا فلا تعود تراقبني من الصباح حتى المساء . فالذي يراقب الآخرين طوال الوقت ، يحبس نفسه في هذا الوقت أيضا .

كانت العمة مارتين تعرف ذلك ، لذا تدعني أتصرف بدون مراقبة ، وتروح هي تتصرف بتحركاتها في المنزل ، طولاً وعرضاً ، ليلاً ونهاراً ، صباحاً ومساءً بخطواتها الصغيرة كخطوة الفأرة . بينما حين يكون والدادي في المنزل ، تخلد الى الجلوس والجمود . أما في غيابهما ، فتبدأ بالحركة ، وتختفي عن الاقترار ، ولا يبقى من أثرها الا صوت تنقلاتها من غرفة الى غرفة ، ومن القبو الى غرفة المؤن .

ما الاعمال التي كانت تقوم بها ؟ لا أحد يعلم . كانت تصدر عنها ضجة غريبة ، فالخشب يقطع ، والجرار الخرفية تتكسر ، ثم يسود صمت تام ! على ان بين جميع الامكنة المتوفرة في منزلنا القديم ، كانت العمة مارتين تفضل تخشيب السقف ، تتسلق إليها بعد الظهر ، ولا تغادرها الا مع خيوط الليل الاولى . كانت تلك عزلتها المفضلة ، حيث تصطف الصناديق القديمة المسمرة بالنحاس والموشحة بوبر الماعز . صناديق تعود الى عشرات السنين السحيقة ، فيها ثياب عتيقة جدا ، تفوح منها رائحة العفن لكن منظرها جميل . وفي تلك التخشيبية أيضا ، صور معلقة على

الجدار للعائلة • وفي احدى الزوايا كومة من أواني الطعام المطلية
بماء الذهب • الى جانبها شمعدانان فضيان فوق صندوق من
خشب الابنوس ، وكتب مجلدة متروكة على الارض وسط كومة
من الاوراق الصفراء التي عبثت بزواياها الفئران • ومن السقف
يتدلى تمساح صغير من القش ، هدية من عم لها بحار قديم يدعى
هنيغل •

وحين تصعد العمة مارتين الى تخشيبية السقف ، لا دافع ،
مهما كان ، يرغمها على النزول قبل وقت طويل ، تقفل وراءها
الباب بالمفتاح ، ولا تدعني ألحق بها وأجلس معها • وغالبا
ما تقول لي :

— اذهب الى الحديقة والعب • أريد أن أسوي اغراضي
القديمة •

وكنت أفهم فأروح أتيه في المنزل بلا هوادة ، ثم أجلس
تحت التينة عند البئر •

وهناك ، تحت التينة ، ذات صباح من نيسان ، فاجأتني
التجربة المغربية ، وعرفت كيف تغريني • كان الطقس ربيعيا ،
والسما صافية وأوراق الشجر الخضراء والازهار
تتفتح • لذلك ، نجحت التجربة في اغرائي •

تغلغت بين الحقول ، قلبي يخفق فرحا ، والربيع حولي مشع
بكل جماله ! وحين بلغت البوابة الكبيرة التي تفصلني عن السهل
الواسع ، وفتحتها ، عبت في شمي روائح الاعشاب والاشجار
والقلف الطري •

ركضت لا التفت ورائي ، حتى وصلت الى غابة صغيرة ،
ترقص فيها مئات النحلات ، يتماوج الهواء وراءها بتأثير رفرفات
أجنحتها المتناثرة منها غبار اللقاح الى الزهر . الى أبعد قليلا ،
بستان لوز كأنه ثلج من الزهر الابيض تسجع فيه اليمامات الاولى
لربيع هذا العام .

كنت نشوان من كل ما حولي . واخذت الطرقات الجانبية
تتجاذبني ، كأنها تقول لي :

— تعال ، تقدم ! إن هي إلا خطوات قليلة إضافية ! المنعطف
الاول لم يعد بعيدا . ستتوقف أمام شجرة الزعرور .

وكانت تلك النداءات تضع صوابي وتحت قراري . ولكن
إذا أنا اندفعت في هذه الدروب الصغيرة التي تتأفن (تسير ملتوية
كالافعى) بين سياجين ممثلين بالعصافير يطلان على خليج زرقاوي
كيف يمكن لي أن أتوقف ؟

بالفعل ، رجت أكمل نشوان مما يطالعي . وكلما تقدمت ،
حدث بي الرغبة أقوى الى المواصلة . فالمساحات المزروعة
تتضاءل ، وتمسي الارض مخصبة أكثر ، تنبت في حواشيها أعشاب
رمادية طويلة أو شجيرات صفاف . وكان الهواء يحمل رائحة
الطين الرطب .

فجأة ، انتصب سد أمامي ، هو ساتر ترابي عال تعلوه أشجار
حور . تسلقته بتؤدة ، حتى اذا بلغت قمته ، وجدتني .. أمام
النهر !!

رحت أتأمله مبهورا : إنه عريض ويجري صوب الغرب .
مياهه العالية من كثرة ذوب الثلوج ، تهدر جارفة معها جذوع
الاشجار . وهي بدت عميقة ورمادية ، تتخللها دوامات لولبية
سريعة تسحب اليها حطما من كل نوع . وكلما اعترض المياه حاجز
أطاحته بزمجرة وهدير ، وأكملت بعرضها البالغ نحو خمسمئة
متر ، هاوية صوب المصب . وفي الوسط ، كان يسير تيار أكثر
شراسة ، يظهر من عرف قاتم يقطع طمي المياه . ارتعشت لمراءه ،
وشعرت بالخوف .

عند سافلة النهر ، جزيرة تقسم تدفق المياه ، ويصعب بلوغها
لعلو سدها المغطى بغياض كثيفة . وكانت تثبت في تلك الجزيرة
العريضة أشجار كثيرة من السندر والهور ، وتتراكم عند محيطها
جذوع الاشجار التي تجرفها المياه .

حين عدت بنظري الى الشاطئ ، فوجئت عند قدمي تماما ،
تحت السد العالي ، بجون صغير يدخل فيه لسان من الرمل الناعم ،
وتهدأ فيه المياه صافية رقراقة . نزلت اليه على مهل ، فطأعتني
جنبات الرباط(*) وقصبات عالية ومائهاث(**) خضراء مزرقرة

* جنبات الرباط : نوع من الشجيرات يستعمل للتزيين .
** المائهاث : شجيرات حرجية تألف الماء .

تشكل مغارة معتمة فوق الجون الصغير ، تثر فيها مئات الحشرات
الطائرة •

على الرمل الناعم آثار أقدام حافية ، من الماء باتجاه السد ،
ذات عرض هائل وملامح حيوانية • اتنابني الخوف فجأة ! فالمكان
موحش منفرد ، ولا صوت فيه الا هدير المياه • فمن تراه يتردد
على هذا المكان المنعزل ، عند هذا الشاطئ السري ؟؟

قبالتي ، الجزيرة صامتة • لكن صمتها بدأ يثير في الريبة •
احسستني ضعيفا وحيدا ومعرضا للخطر • لكنني لم أشأ العودة •
لم أكن أستطيع الرجوع • كانت قوة خفية سحرية تشجعني على
البقاء في هذه العزلة • فتشت عن دغل أختبئ فيه ، لعل أحدا
يراقبني ويتبعني • اندست تحت دغل شائك ، أرضه ناعمة
تغطيها قشرة رقيقة من الطحلب اللين واللزج • واذا اطمأنت الى
أنني بت مخفيا عن الا نظار ، رحت أتنظر وأترقب كل حركة ، فيما
عيناى مركزتان على الجزيرة •

مر وقت لم أر خلاله شيئا • كانت تنبسط علي ظلال الاوراق
وحولي تتواصل رقصات الحشرات الطائرة • احيانا يطير عصفور ،
أو تندفق موجة قصيرة من المياه داخل الجون تبطئها تعرجات
الشاطئ • طال الوقت حتى بات رتيا ، وبات الهواء باردا ،
فغلبني النعاس وغفوت •

لم أدر كم طال نومي ولا ما الذي ايقظني • لكنني ، حين

فتحت عيني ، مدهوشا من وجودي في عبء هذا الدغل ، رأيت
الشمس تكاد تغيب وتلفظ آخر شعاعاتها •

لم يبد أن شيئا تغير حولي • مع ذلك بقيت منتظرا حدثا ما •
فجأة •• وسط الجزيرة ، رأيت سحابة دخان زرقاوية صافية
تعلو بين أوراق الاشجار • إذا : الجزيرة مسكونة ! بدأ قلبي
يخفق اضطرابا • تغرست في الضفة المقابلة ، فلم أر شيئا ولا أحدا
وبعد وقت قليل ، صغرت سحابة الدخان ، وراحت تنسحب ممزقة
على أعالي الشجر ، حتى لم يبق منها أي أثر •

ومع هبوط المساء ، خرجت من مخبأي ، ففوجئت باثار
الاقدام على الرمل ازدادت أثارا أخرى ، مما يعني أن أحدا مر من
هنا فيما كنت نائما • تراه رآني ؟؟

اشتدت العتمة بين القصبات الكثيفة ، وفر من بين الاسل
قربي عصفور وهو يطلق تغريدة طويلة أجابتها أخرى جريئة من
الجزيرة •

امتلكني خوف شديد ، فعدت أدراجي هاربا لا ألوي على
شيء •

وصلت الى البيت في أول الليل ، فاستقبلتني العمة مارتين
بشتى أنواع الكلام الغاضب :

— أيها الارعن ! أيها الطائش !
ثم اقتربت مني تشمني باستغراب :

— ما ريحة الطين هذه تتبعك منك ؟
واقتربت أكثر :

— وما هذه الاشواك والاوراق العالقة في شعرك ؟ اذهب
وسرحه •

انصرفت من أمامها بدون جواب • كنت أعرف طبعها : صراخ
«وغضب ، ثم لا تلبث أن تهدأ •
لحقت بي مردفة :

— ألا تخجل من منظرِكَ هذا ؟
طبعاً كنت أخجل • لذلك بقيت مطرق الرأس بدون تعليق •
وأردفت :

— ماذا لو أخبرت والدك ؟!

طبعاً كنت عارفاً بما سيحصل لو أخبرت والدي • لكنني
كنت أعرف أنها لن تفعل ، من شدة محبتها لي ، وإخالها كانت
تقول في سرها : « من حسن حظك ان العمة مارتين ضعيفة أمامك
لكثرة ما تحبك • على كل حال ، والدك ، في سنك ، لم يكن أكثر
هدوءاً » •

ثم ما لبثت لهجتها التهديدية أن هدأت ، فقالت :

— أنت جائع طبعاً ••

— نعم يا عمتي ••

فأخذت تهییء المقلادة وهي تدمدم :

— منذ السابعة صباحا وأنت خارج البيت • طبعاً رأسك
يدور •

— نعم يا عمتي • عندي دوار خفيف •

— وأنا ما عندي لك الا عشاء خفيف : حساء قليل ، رأسان
من البندورة ، وبعض المقائق •

وهنا سمعنا وقع خطوات ، ثم دخل علينا باركابو من باب
المطبخ •

بدا لي كبيراً كما ولا مرة من قبل • وكان ذا ملامح برية ،
حتى كادت العمة مارتين تفلت المقللة من يدها • أما هو فلم يتنبه
لذلك • وبادرنا :

— أحمل إليك سمكا طازجا • إقليه • ولا أظنك ترفضين أن
تقدمي لي كأس من الشراب •

وجلس الى الطاولة ، فتناولت العمة مارتين السلة وسمعناها
تنزع حراشف السمكات ثم رأينا الزيت يحترق في المقللة • وبعد
دقائق كانت العمة مارتين تدعو باركابو وتضع أمامه على الطاولة
كأس من الشراب والخبز الاسمر وبعض الخل • فسحب من جيبه سكيناً
طويلاً قص به شريحة خبز كبيرة وضع فيها سمكتين وأخذ يأكل •
كنا ننظر اليه يلتهم الطعام صامتاً وتنفوح منه رائحة النهر •
وما هي حتى انتبه الى أننا لا نأكل ، فبادرني :

— يجب أن تأكل يا بني • اصطدت هذه السمكة الكبيرة
لأجلك • من ضفة النهر • تعرف النهر أنت ، بجزييرته وأدغاله التي
يسكن الاختباء فيها عن عيون الناس •

أصابني شحوب تنبّهت إليه العمة مارتين • لكن باركابو
تناول تلك السمكة بسرعة ، ووضعها في صحنني ، ثم شقها ببراعة
وسحب منها الحسك وسكب نقطتين من الزيت عليها وبعض
الخل وقال :

— ها هي جاهزة ، فالتهمها •

وبقيت العمة مارتين صامتة حتى نهاية العشاء •

بعد رفع الصحون ، أخذ باركابو وهو صامت ، يرسم
بظرف سكينه اشكالا مختلفة على الطاولة • بعضها لاسماك
غريبة ذات زعانف ضخمة وبعضها الاخر ذات رؤوس كبيرة تفتح
أفواهها للفراغ • كما رسم أفاعي متنوعة وسلاحف ماء •
بقينا أنا والعمة مارتين صامتين مبهورين بهذه الاشكال •
وفجأة ، دمدم باركابو :

— أحس كما باعصار قريب •

وبالفعل ، بعد لحظات سمعنا رعدا بعيدا ، فنهض باركابو
قائلا :

— عمتما مساء • يجب أن أغادر • سيدهمني الوقت ولا وقت
عندي أضيّعه •

وخرج في ذاك الليل الذي استمر بالرعد حتى الصباح ،
مصحوبا ببروق كثيرة كانت تنفتح في قلب السماء كمقصات من
نار • وقد سقطت صاعقة على شجرة صنوبر فسحقتها وارتج البيت
وهي تهوي وتردد الصدى في الطابق الارضي •

كنت ملتحفا الى ما فوق رأسي ، وافكر بالنهر وكيف يكون
تحت التماعات البروق بألسنتها الزرقاوية •

وكان المطر شديدا تلك الليلة ويضرب جوانب البيت فتهتز
تحت زخاته •

ومع الصباح ، هداً الاعصار ، واخترقت الشمس حجب
الغيوم الكثيفة فأرسلت شعاعاتها الدافئة الى الحقول المبللة
يمطر الليل •

ولم تجف الحقول من مياهها الا بعد ثلاثة ايام ، بقيت
خلالها في المنزل لم اخرج فيما العمة مارتين استعادت تحركاتها في
المنزل بخطواتها الصغيرة وغرقت في انشغالاتها حتى نسيت تماما
حادثة هروبي طوال ذاك النهار •

الفصل الثاني

الجزيرة

(الجزيرة)

أعدت الكرة ذات صباح ثلاثاء • كان النهار في أوله ، والعمة
مارتين لا تزال نائمة في غرفتها ، بعدما بقيت في الليلة السابقة



تنقب حتى منتصف الليل • أفدت من استغراقها في النوم حتى

أحشو كيسا صغيرا ببعض المؤونة من التين والجوز وقطعة خبز
كبيرة •

بعد ساعة ، كنت عند ضفة النهر •

ما كان أروع ! موجه رقراق ، وسطحه يعكس سماء صافية ،
نقية إلا من غيمتين صغيرتين يطاردهما الهواء وتنعكس ظلالهما
على صفحة المياه المناسبة سريعة صوب أفق بعيد من التلال • ولم
يكن التيار الاوسط المخيف ، المعتمر تلك القلنسوة السوداء ،
يعكر وجه تلك المرأة الهادئة • لذا كان النهر يبدو ضاحكا بين
ضفتيه الملونتين بمسحة وردية في ذاك الصباح المنبلج • وفي البعيد
كان طائر «قاوند» يطير فوق الجزيرة ، فيما النسيم الصباحي
يدمدم بين القصب •

مشيت بمحاذاة الضفة حتى بلغت كوخا قائما فوق الماء على
أربعة أوتاد ، يصار الى بلوغه على ممر صغير • في داخله ، على
أرجوحة صغيرة معلقة ، بساط من الطحالب الجافة • من السقف
تدلى شبكة عتيقة ، وفي احدى الزوايا بعض أدوات المطبخ •
فكرت : « هنا يأتي باركابو لينام حين يصطاد السمك » •

تحت الكوخ ، شويطىء يتهادى فيه مركب صغير مربوط
الى وتد • تأملته فاذا هو عتيق منخور ، تتسلل المياه من بين
شقوقه ، والطلاء انقشر عنه لطول رسوه تحت الشمس والمطر •
كان بلا مجاذيف ، ويعيقه عن الانسياب في النهر جبل من القنب
مسزق ، بعضه غارق تحت صفحة الماء •

أغراني هذا الهدوء ، فانسلت حتى المركب • وبعد تردد
قصير ، وضعت فيه رجلي فلوى بثقلها • اعتراني خوف شديد ،
لكن المركب عاد الى توازنه ، فصعدت اليه وجلست في الوسط
على المقعد بكل حذر وبدون حركة • كان كل شيء ساكنا حولي :
الماء ، النهر ، المركب ، وشعرت بفرح وسعادة رغم كل الخوف
الذي يعصر قلبي •

خلفي كان الشاطئ ، وأمامي النهر ينساب ، وعند سافلته
تبدو الجزيرة طالعة من بين أشعة النهار الاولى ، وتمسح عنها
بقايا الضباب الصباحي ، فتبدو أشجار الحور والدردار والسندر
كثيفة يتسلل النور من بين أوراقها الكثة • وفي البعيد ، صخرة
كبيرة زرقاوية وسط المياه ، تتكسر عليها موجات النهر المهرولة •
أما ضفاف النهر، فوردية تعبق منها خلل الضباب الصباحي روائح
الشجر الطري والاعشاب والازهار البرية ، مما أخذني في غمرة
من النشوة اللذيذة •

فجأة ، وكما في المرة السابقة ، تصاعد الدخان من بين
الاشجار • ففكرت : « هذا باركابو يشعل النار ، ليقلي سمكا
اصطاده » • وتحسرت على أنني لست في الجزيرة •

المركب ما زال جامدا بي • فلا موجة ، ولو صغيرة ، كانت
تصل الى هذا المرسى الصغير حيث أنا في مأمن من الاعين ،
ويمكنني أن أراقب المياه المناسبة بصمت محدثة خيرا يسحرني •
لم أعد منتبها الى الوقت والمكان ووجودي ، ولا الى ما

الذي يجزي : المركب أ النهر حتى لم اعد ادري اذا كانت المياه تسير
أم أنني أنا اجري بدون مجاذيف . كل ما اعرف انني وجدت
نفسي في وسط النهر ، والكوخ بات ورائي بعيدا على الشاطئ .
عندها تنبعت وخفت : « أين أنا » ؟ الحبل انقطع بين المركب
والكوخ ، وتيار المياه يقذف بي على هواه . حاولت التقاط غصن
طاف على صفحة المياه ، لكنه أفلت مني . ورحت أتوغل في وسط
المياه بدون أي دفع ، وابتعد عن الشاطئ . اعترائني برد الخوف .
فالمياه التي كانت في البدء مناسبة أمامي ، باتت حولي من كل
جهة ، يجرفها التيار القوي ويجرفني معها ، حتى بت أراها تهجم
باتجاهي عالية من البعيد ، وتدفعني بدون ارادتي صوب طرف
الجزيرة حيث تتكسر الموجات الراكضة بشكل مخيف . ومع
الاقتراب من الجزيرة كان غضب الموج يزداد ، وسرعة التيار
تزداد ، وتجرف المركب بي أسرع فأسرع . وكانت المياه تتسرب
من شقوق المركب فيقطع هذا تحت ثقلها ، ويدور بي على نفسه
وسط دوامة التيار ، ثم يتجه من جديد وبسرعة صوب طرف
الجزيرة بخطر كبير من اصطدام قاتل قد ينقلب بي المركب عنده
وأغرق . امتلكني الخوف فأغمضت عيني وبقيت أسمع زمجرة
المياه ، ثم أحسست بسرعة المركب خفت فجأة ، ففتحت عيني واذا
بهيكل المركب يصطدم بكومة من الحصى . ها أنذا ، والحمد لله ،
نجوت !! كانت تلك الكومة على أمتار قليلة من الجزيرة ، ذات
انحدار خفيف ، وفي الجهة الاخرى من زمجرة التيار العنيف
الذي يودي الى موت محقق .

بقفزة سريعة ، كنت على اليابسة •

وعندها انفجرت باكيا من خوف وضياح •

وبعدها بكيت من كل قلبي ، فهمت وضعي : ها أنذا
هنا ، تفصلني مئتا متر من المياه العميقة عن الشط الذي خلفه
المنازل والناس ، وعلى بعد كيلومترين منه بيتنا بين باقة من
الصنوبر والدلب ، ويرسل دخانه صوب السماء في هذه الساعة
الصباحية • فالعمة مارتين استيقظت حتما وأشعلت الحطب في
المدخنة وبدأت تبحث عني •

بدرت مني لحظة يأس ، وتساءلت : « كيف الخروج من
الجزيرة ؟ من أناديه فيسمعني » ؟

جلست على جذع شجرة وأخذت أفكر • لكن تفكيري ،
مع الاسف ، لم يذهب بي بعيدا • فجميع أفكاري انتصبت حولي
تنهري : « لقد ضعت » • لكن ما كان يشغلني أكثر : « ماذا
ستقول العمة مارتين ؟ ها هي منذ الان ، ولا تزال الساعة التاسعة ،
بدأت تقلق ، فما حالها في منتصف الليل ؟ وفي منتصف الليل
سأكون حتما هنا ، والمياه تنساب حولي في عتمة الليل مخيفة
راعدة !! » •

حزينة • • حزينة كانت أفكاري •

في تلك اللحظات ، حمل النسيم إلي رائحة خشب يحترق •
وعاد الى ذاكرتي منظر الدخان الذي شاهدته مرتين بين الاشجار •
ففكرت : « يجب ان اتحقق من ذلك » • ورحت أتوغل بين
الادغال ، حتى بلغت طرف فرجة في الغابة •

تقدمت اكثر ، فرأيت كوخا ، واسعا مستديرا ، على بابيه
كيس معلق ، وفي باحته ثلاثة حجارة ، لا تزال النار مشتعلة بينها ،
محدثة دخانا يتصاعد فيلحس قدرا كبيرة سوداء غريبة الشكل ،
ذات أذنين صغيرتين وجوف سمين منتفخ •

وكانت أمام الموقدة فتاة منحنية تؤجج النار بقضيب طويل،
وأبعد منها قليلا : قطرة نائمة، ودجاجات تنقر الحبوب عن الارض •
فمن يكون هؤلاء المساكين الذين يسكنون في هذا الكوخ
من الاغصان ؟

كانت الفتاة تلبس ثيابا رثة ، عيناها سوداوان ، بشرتها داكنة
ومنظرها فعلا غريب : في أذنيها حلقتان نحاسيتان ، وأحيانا تدندن
لحنا غريبا بصوت هامس • ابعد منها ، حمار يجول في الباحة •
وخلف الكوخ ، تحت احدى الاشجار ، كتلة غريبة بنية • أقلقني
منظرها ولم أستطع تبيينها مليا ، لبعدها عني • كانت جامدة •
فهل هي جثة حيوان ؟

من القدر كانت تتصاعد ألسنة البخار الحلزونية ، وتفوح
منها رائحة زكية • وما هي حتى جاء غراب من الغابة وحط على
كتف الفتاة ، فخاطبته • بهت للمشهد فانتصبت واقفا لارى أوضح
فجأة ، استدارت الفتاة وتطلعت صوبي بدون أن تبدي اية حركة •
تراها رأيتني ؟

ثم خرجت من الكوخ امرأة هزيلة قاسية الملامح ، تحمل في
يدها ديكا من عنقه ، واقتربت من النار فذبحت عند الموقد وهو

يطلق صيحات مذعورة • وهنا تحركت الكتلة البنية الهائلة ،
فاتصبت وجأرت ثم مشت على أربع : إنه دب هائل ، اقترب من
النار وهو يتميل ، حتى اذا وصل عند القدر ، استنشق الهواء
بشخير هائل وخطمه متجه صوبي ، فدعرت وأطلقت العنان
لرجلي هاربا •

بقيت أركض مسافة طويلة حتى بلغت طرف الجزيرة ، أبحث
فيه عن مخبأ • وما كدت استقر في مكان جانبي حتى سمعت نقشا
في المياه • التفت فاذا بمركب آت من الشط الى الجزيرة ، فيه
أربعة رجال قساة الملامح سود البشرة ، غجر بريون • عندها
أحسست بأثني وقعت في كارثة كبيرة •

ترجل الاربعة ، وسحبوا المركب الى الرمل حيث خبأوه في
مأمن تحت ساتر معدني كبير • ثم نشلوا منه ولدا في سني ، مكتفا
وموثوقا ، حمله أحد الاربعة على كتفيه • تسنى لي أن أرى
وجهه ، فاذا هو أدكن كوجوه خاطفيه ، مغمض العينين ، مزمووم
الشفتين ، كأنه من حجر • ودلف به الرجال بين الاشجار مختلفين
خلف الادغال •

كنت وحدي ، وكان الوقت ظهرا • أحسست بالجوع ، إنما
لم أتعاسر على لمس ما معي من مؤونة • فأقل حركة مني تحمل
إلي الخطر من احداث صوت أو كسر غصن ، فيتم اكتشافني
واعتقالي وايتاقي •

طوال بعد الظهر ، لم اجرؤ على مغادرة مخبأي ، وهو في
حفرة صغيرة داخل صخرة ، تخفيها قمام المناقع (نبات يكثُر في
المناقع والمواقع الرطبة) •

كنت كأني منتظر أعجوبة تحدث : رجلا يطل على الشاطئ ،
صيادا على الأرجح ••• إنما لم يظهر أحد ، وهبط مساء ، أذهلني
لأنني لم أشاهد ، من قبل ، مساء مثله : قاتما أزرق ، وصوب
الشرق شجرات هائلة معنقة من النجوم • منظر ملأني اندهاشا !!

ومع انطفاء شعاعات النهار الاخيرة ، كان الفلك الغائص في
العتمة يضاء ، أكثر فأكثر ، بأشكال كبيرة متنوعة سحرية • انها
كواكب مجهولة ، لم أعرف اسماءها الا في ما بعد ، الدب الاكبر ،
بتلجوز ، أوروين ، الدياران ••• واذا كنت أجهل أسماءها ،
رحت اتأمل التماعاتها الليلية وسط العتمة الهائلة • كانت تشتعل
في البعيد بصمت ، وتنعكس أضواؤها متوهجة في النهر الصافي.
المياه اسودها • ومع هبوط الليل ، ازدادت سرعة انسياب النهر
صوب الجزيرة بشكل مخيف • وعثا كنت أحاول من مخبأي
اغماض عيني لعلي أنساه ، فلم اكن أنسى • كان صوت هديره
يأتيني ويزيد خوفي وقلقي ، فأشعر كم أنا صغير وضعيف •

كان يمكنني أن أمد قدمي فألمس المياه الباردة المناسبة تحت
مخبأي • وكان خوفي يتزايد من المحيط الساكن حولي ، فقررت
الخروج ، وزحفت مرتقيا الضفة • أملا بأن أسمع صوتا
بشريا أو أرى احدا • ولكن ، من لي أن أنادي في هذه العزلة

الرهبة ؟ فالذين في الجزيرة ، يخطفون الاولاد . انهم بشر ، لكنهم
أفظاظ . لهم كوخهم ، الحقير صحيح ، لكنه على الاقل يأويهم .
وهم يشعلون فيه النار التي وهجها يضيء ما بين الاشجار ، قريبا
من حيث أنا . تغرست أكثر ، فرأيت مسكنا . أغرتني الرؤية
بالتقدم صوبه في هذا الليل الاليل مشدودا الى نار بشرية ،
فتسللت بين الاشجار خلسة ، بدون تحريك الاغصان الواطئة
حتى وصلت الى الكوخ ورحت أترقب وأراقب ، تحت شجرة
شوكية الاوراق .

أمام النار ، كانت الفتاة تحرك الجمر ، والساحرة العجوز
مقرصة ، في يدها مغرفة ، تحرك في القدر الكبيرة طعاما غريبا ،
الى جانبها الكلب مقعى يتأملها ويستنشق البخار المتصاعد ،
مرهف الاذنين ، فيما الدب يتجول حولهما في الرواق . واذ الهواء
متجه من المكان إلي ، لا العكس ، لم يكن ممكنا للحيوانين أن
يشما رائحتي . وكان ثلاثة رجال ، مفترشين الارض ، يأكلون غير
بعيد عن النار ، فيما الرابع ، واقف وفي يده عصا ، والولد موثق
بقدميه ويديه الى عمود قربهم . وبدأ أن الرجل الواقف كان انتهى
من جلد الولد ، الذي بدت آثار التعذيب على ظهرت العاري حتى
حزامه . وكلما علت السنة النار ، بدت ثلاثة أثلام من الدم
الاسود بين كتفيه . كان الرجل الواقف يوجه الى الولد عبارات
قاسية عنيفة لم أفهمها لانها في لغة غريبة ، والولد ، بدون خوف
يجيب جلاده بنبرة عنيفة مماثلة تكلفه جلدا اضافيا ، فيعود السوط
ينهال من جديد على ظهره فيسكت . تأملته أكثر ، فاذا هو بهي

الطلعة ، متين البنية ، اكبر مني قليلا ، وأقوى . انه فتى عجري بدون شك . وتحت آلام السياط ، كان يزم شفثيه ويغمض عينيه من شدة الوجع ، لكنه لا ينبس بصرخة واحدة .

بعد قليل ، تحرك الرجل الواقف ، فترك الولد بنزق وغضب ، وانصرف يأكل ، حتى اذا انتهى ، نهض الرجال الاربعة ودخلوا الى الكوخ ، ليناموا على الارجح . ثم نهضت العجوز ، بدورها ، وانسحبت وراءهم الى الداخل . فلم يبق في الرواق الا الكلب والدب والفتاة . أما الولد الموثق الى العمود ، فلم يكن فتح عينيه بعد . تقدم منه الدب ، واخذ يشمه . واذا لم يتحرك الولد تسدد الدب على قدميه ونام ، فيما ابتعد الكلب الى الغابة بحثا عن طرائده . ولم تلبث الفتاة ان استلقت هي الاخرى قرب النار ونامت .

عندها ، رفع الولد رأسه وفتح عينيه ، مجيلا نظره ببطء حوله . وما هي حتى وقعت عيناه عليّ ، فاجتاحني رعشة خوف هائلة . لكنه لم يرني ، لاني مختبئ بين كتلة كثة من الاغصان والاوراق . سوى أن فكرة مفاجئة اخذتني : « لماذا لا أتقدم وأفك وثاقه ؟ » . إنما خائنتني شجاعة أن أفعل ، خوفا من الذين ينامون في الداخل والساحرة ، والدب ، وهذه الفتاة التي تستيقظ عند أقل حركة .

مع ذلك ، خرجت من مكاني وتقدمت بضع خطوات صوب الفرجة ، فرآني الولد ، إذ انعكس وهج الموقدة علي ، لكنه لم

ينفعل • التمتع عيناه ، وانفجرت شفتاه المزمومتان عن أسنانه
البيضاء ، وأخذ يترقبني أتقدم صوبه ، كشبح ، بدون أن يدي
حركة •

وصلت الى العمود ، ورفعت يدي الى الجبل أفكه ، لكنني
اصطدمت بشدة وثوق العقد المربوطة وكثافة التفافها ، فهمس لي
الولد :

— اسمع : قرب الموقد سكين كبيرة • اسمي كاتزو •
ولكن الفتاة كانت نائمة قرب السكين • فقلت مرتجفا :
— ستستيقظ •

— وهل أنت خائف ؟

قال ذلك وأحنى رأسه أسفا فهزتني دلائل آلامه • عندها
تقدمت من النار ، بخطى خفيفة كما في حلم • وصلت الى السكين
لكنني رأيته بين أصابع الفتاة النائمة • ففتحت الاصابع بتؤدة ،
وسحبت السكين من بينها ، ففتحت عينيها وفرست بي قائلة :
— آه !! إنني أحلم ••

ثم خبأت وجهها بيديها وأدارت لي ظهرها وعادت الى النوم •
فأسرعت الى العنود وقطعت الحبال حول الولد ، فجأر عصفور
الى قربنا واستيقظ الدب • واذا رأي ، استغرب ونهض بقفزة
واحدة ، مدمدا ومادا صوبي خطمه الهائل • فبادرني الولد :
— لا تخف • سأأكله •

ثم قال :

— آكالاوو ... آكالاوو ... ريكشاه ... آرازادولس ..

وكان صوته ، هو يتلفظ بتلك العبارات ، ناعما ، هادئا .

فهدأ الدب ، وعاد الى الارض فنام .

أكملت العقد الاخيرة من الحبل ، فتحرر الولد ، وخرجنا معا

من المكان . كان الليل أليل ، بدون ضوء قمر ، حتى أنني كنت

حتما سأضيع لولا رفيقي ، الذي كان يمشى في العتمة كأن له

عيني هر بري ثاقتين ، وهو يمسك بيدي . فسألته :

— الى أين تقودني ؟

— (هامسا) الى المركب .

وحين بلغناه ، بادرني يهمس كذلك :

— هو ذا الخلاص .

فاعترفت له بخوفي :

— سنغرق حتما ، فالتيار قوي .

— واذا بقينا هنا سيقتلوننا حتما . لا تخش شيئا . أنا

أعرف المياه هنا .

فسحبنا المركب بعناء شديد ، من الدغل حيث كان خبأه

العجر . وركبت فيه ، فجره كاتزو الى المياه ، وأخذ يدفعه وأنا

معجب من قوته ، حتى اذا جرف التيار المركب ، ركب كاتزو

بدوره ، قائلا :

— إبق أنت في المقدمة ، وأنا أقوده .

وبالفعل ، ركز مجدافا في الكوثل [مؤخر السفينة] ، وأخذ
يقود •

أخذنا تدريجيا نحاذي الجزيرة ، التي بدت لي كبيرة هائلة
في الليل ، بأشجارها العالية وسط هذه البقعة الشاسعة من
المياه الهادرة •

وبعد بعض المحاذاة ابتعدنا عن ضفاف الجزيرة متوغلين
صوب وسط النهر ، والجزيرة تبتعد عنا وتغرق في كثافة العتمة •
سألت رفيقي ببعض الخجل :

— الى أين الان ؟

فلم يجب • كنت أراه بصعوبة لكثافة العتمة ، لكنني كنت
أتبين ، من زفيره ، كم كان يجهد في التجذيف بكل قواه ، لشدة
ما كان تيار النهر قويا ويحتاج عضلات قوية لغرز المجذاف فيه
وتسيير المركب الى الموقع المرتجى •



الفصل الثالث

المياه الراكدة

(المياه الراكدة)

قطعنا في النهر جزءا من الليل كبيرا ، لم أنم خلاله لحظة •
كنت أراقب كاتزو الذي سلك وسط النهر ، وبدأ يعرفه تماما ،
بدليل أن تيارا سريعا فيه كان يجرفنا • وبعد وقت غير طويل ،



بدأت أتبين الاشجار على الضفة تقترب منا ، وسرعة المركب تخف

وهناك ، دخلنا في قناة بين جدارين أسودين من النباتات العالية راحت تضيق حتى بتنا في مرورنا نلامس الاوراق الرطبة ، ثم عادت فأتسعت واذا بنا على صفحة من المياه وسيعة ، لم أتبينها مليا في العتم ، تباطأ عندها المركب حتى توقف نهائيا . وبعدها ربطناه ، سألني كاتزو :

— ما اسمك ؟

— پاسكاليه .

— إطمئن الا يا پاسكاليه . أنت الان في مأمن . افعل مثلي .
ونهم . تصبح على خير .

وتسدد في أرض المركب ، ففعلت مثله ، ومع أن الواح المركب قاسية ، لم ألبث أن غفوت لشدة تعبني .
رغم أن ذلك حدث منذ سنوات طويلة ، وأنا اليوم في خريف العمر ، لا زلت أذكر تلك الايام في المياه ، بكامل تفاصيلها ، وكل عذوبتها من زمان الصبا . وغالبا ما تعود إلي تلك الذكريات ، فأرى ما رأيته ، صباحئذ ، حين استيقظت واكتشفت سحر عالم المياه .

فحين فتحت عيني ، كان الفجر ينشق من قلب الليل . رأيت السماء وسيعة ، رمادية ، مع خيط وردي رفيع يتهادى بين غيوم رقيقة شفافة . وكان النسيم الصباحي ، في الاعالي ، ينسج شبكة أخرى من خيوط الابخرة الندية . ومن صوب مطلع الفجر ، كانت بخار فضي شاحب يرتفع بطيئا فوق النهر .

سمعت زقزقة عصفور ، سرعان ما أفاق نقيق ضفدعة
مجاورة . وما هي هب رف من الاجنحة المبللة من بين القصب
الكث ، فتصاعدت حولنا أصوات الحيوانات المائية قبل أن نراها:
فاذا خفيف وضجيج وعسعات ورفيف أجنحة وصعقة أخرى
على صفحة المياه وتقاطر نقاط الماء من الطيور المرفرفة وهروب
فأرة مذعورة الى الدغل ونقنقة طير في البعيد ووقع أحجار على
ركام وزحف بطة تتسلل بين قضبان الاسل ، وأصوات مختلف
الطيور تقيق وتنهض وتمارس رفرقاتها الصباحية الاولى قبل ان
تظير .. كل هذه ، وسواها ، وأنا أنصت بكل انشدهاء وغبطة .

أحيانا ، كانت تهب نسمة صباحية من صوب الفجر ، على
العالم السحري حولي ، عند هذه الامكنة ، فتنتعش
النباتات المائية وتنهض من غفوتها الصامتة ، فترنح أمام النسيم
وتصدر عن ترنحها أصوات لذيذة .

وسط كل ذلك ، كان المركب جامدا لا يتحرك ، كأنه عوامة
من الفلين ، خفيفة خفيفة تكاد لا تلامس صفحة المياه .

في قعر المركب كان رفيقي لا يزال ممددا على ظهره ، رأسه
منقلب الى الوراء ، ويعط في نوم عميق ، متجمدا الوجه بدكتته
وخديه البارزين ، وأنفه الافطس وشفتيه المزمومتين كما لتحبسا
النوم ، وجفنيه السوداوين الكبيرين اللذين يغطيان عينيه الغائيتين
عميقا . وهكذا كان النوم يغلف روحه البرية الفتية .

وحين انزلت اشعة الشمس من على رؤوس القصب الى هذا
الوجه الغافي ، انفتحت عيناه سريعا • فابتسم اذ رآني ، وانفرجت
من وجهه الملامح القاسية فتمتم بصوت هادىء :

— پاسكاليه ••

ورددت له الابتسامة بمثلها • ها نحن بتنا صديقين •
عندئذ ، بدأت فعلا مرحلة المياه الراكدة • وهكذا عشنا
عشرة أيام في تلك الناحية المعزولة من النهر ، وأكد لي كاتزو :
— هنا نحن في مأمن لبعض الوقت ، لاحقا ، سنرى كيف
نتوجه •

وكانت تلك الناحية تتوغل صوب الجهة اليسرى من ضفة
النهر (أي الجهة المقابلة لمنزلي) وتتجه صوب الاراضي
المنخفضة التي تفصلنا عن ضفافها أدغال معقدة من النباتات المائية،
كانت تحمينا بكل أمان •

على طول تلك الناحية ، كان يعلو جدار سميك من الشجر
الحرجي — المائي ، وبالقرب منا تعلو أنصاب من البيلسان
والجوالق(*) والقصب العالي الكثيف بكل أنواعه : قصب
المستنقعات ، القصب الملون ، القصب ذي الاريج • وكانت أعناقهم
تنتصب من الطمي معنقة عالية وتشكل في غير مكان ، وسط المياه
الزرقاء ، جزرا يتعذر بلوغها •

وهكذا كانت تلك الناحية من النهر تتفرع الى قنوات
لا تحصى ، بعضها متجه صوب الارخيل النباتي ولا يلبث أن

* الجوالق : نبات شائك من الفرثيات •

يختفي بين الخضرة الكثيفة ، وبعضها الآخر يمتد بين الصفصاف حتى يختفي في أعبابه • وكان المنظر من السحر بحيث لا يمكن الإحاطة بوصفه • مياهه ساكنة هادئة ، إلا موجة تتسلل أحيانا حاملة في عبا زهرة قطبة أو نفل •

كنت مأخوذا بكل ما حولي ، فيما كاتزو على العكس بدا غير مكترث ، قليل الكلام ، مما استغربته في البدء ثم الفته • فهو لم يتحدث أبدا عن اعتقاله ، في ما بعد ، ولا عن هروبنا ذاك • صداقته كانت صموتة • وكانت تلك نقطة بيننا مشتركة ، لاني أذا الآخر أحب الصمت • انما لغير أسبابه هو ودوافعه • فهو يسكت ليفكر بأعمال مفيدة ، وجميع أفكاره تتجه الى قضاء الحاجات : الصيد ، ايجاد مرسى مؤات ، إعلاء شبكة في وجه الشمس تقينا لفحها ، البحث عن مأوى ، شي الطعام • واذا تكلم فبايجاز شديد وحركات مقتضبة مدروسة • كانت روحه مهندسة بدقة • وكنت أشعر بذلك واضحا ، وأحسها محصورة داخل جسمه الاسمر الادلكن الذي يغلي بحياة صاخبة ودم ثائر انما بصدق ووفاء كبيرين •

أما أنا فكل ما بي يتناقض تماما معه الا في ما يتعلق بحب الصمت • لكنني أنا اذا أسكت ، فللذة الصمت ليس الا • سوى أن هذا الصمت لا يلغي وهج التفكير العابق بأفكار تائهة كيفما اتفق والتي في نهاية المطاف تعود فتدخل في كنف أحلامي وتأملاتي • فأنا لا أفكر بعمق ، بل أتبع الصور الغريبة التي

تجتأحني أحيانا فأصمت حتى تعبر هذه الصور الى داخل نفسي •
قال لي كاتزو ببعض التوتر :

— كأنك تنام واقفا !

وكان بدا مستيقظا بعد نوم مريح من عناء أمس • ثم أردف:
— حين أنام ، أقوم بما يقتضيه النوم • أغمض عيني ولا أعود
أفكر بشيء أبدا • هذا مريح جدا • بينما حين أنت تنام ، لا تنفك
تستدير وتتقلب وتهذي ، فتفسد هناة نومك •

لم أجب إنه على حق • لكنني أكتوي بالهموم والقلق •
وهكذا مضى اليوم الاول من وجودنا معا في تلك الناحية ،
حميلا هادئا لم أعرف مثله في حياتي • انه أجمل يوم في عمري •
أول ما فعلنا ، أننا اكتشفنا ما في المركب من كنوز كانت
مخبأة في صندوقين مليئين ، الاول في المقدمة ويحوي أدوات
الصيد الكاملة العدة والعدد ، والآخر خلفه يحوي الكثير من
مؤونة الطعام ، التي سرعان ما وضعناها في أوعية حديدية لنحميها
من الرطوبة •

— أحيانا كانوا يخرجون في النهر بعيدا عن الجزيرة • لذا
كانوا يتمنون بكثرة •

كنت أود أن أعرف أكثر ، لكن كاتزو اكتفى بقول ذلك ،
وسكت •

سررنا كثيرا باكتشاف ذاك الزاد الكافي ، من بن وسكر

وطحين وخضر ، وبهارات ، وزيت ، وما يكفي لاسبوع طويل
على الاقل .

وكان في المركب أربعة مجاذيف ، وهيكله متين ومشدود
جيذا ، نظيف الطلاء ، وفي مؤخرته دواراة للريح من النحاس .
وقد فرحنا لها كثيرا لانها حوت اثنتين وثلاثين علامة ، وستة عشر
اسما للرياح المختلفة . قال كاتزو :

— يجب أن نجلوها ونلمعها ، فهي نجاتنا الاكيدة .
تركنا كل أعمالنا وانصرفنا الى تلميعها ، فباتت تشع .
ورأينا عليها بحروف كبيرة من ذهب ، اسم المركب :
« المرعة » (*) .

وأكد كاتزو :

— لقد سرقوه . أعرف من أين . لكن المكان بعيد جدا
من هنا .

قال ذلك وأشار الى أعلى النهر بعيدا حيث رأيت ، بصعوبة
بين الضباب ، تلالا مختلفة . فسألت :

— هناك ؟

— هناك . بلاد جميلة جدا .

ورحت أفكر : « بلاد ؟ أية بلاد ؟ ومن أين جاء كاتزو الى
هذه الجزيرة النائية ؟ ومن يكون هذا الفتى » ؟

(*) المرعة : طائر يشبه الدراج ، يقال انه لا يظهر إلا في المطر .

وبقي تفكيري محصورا في سكوتي ، فلم أجرؤ على طرح أي سؤال من هذا النوع ، لاسيما أنه لم يطرح علي مثل هذه الأسئلة ، ولا بد أنني أنا أيضا كنت له لغزا بوجودي في الجزيرة وظهوري المفاجيء . ومع ذلك لم يكن يبدي أي تساؤل حول ما جرى وما كان يدهشني أنا نفسي ، اذ كنت أشعر أحيانا أنني في حلم لذيذ لا في حقيقة . فهل يعقل أن التقى هكذا ، بمحض الصدفة ، هذا الفتى الذي لا أعرف عنه الا اسمه ، في هذا المركب المختبئ وسط هذه الغابة من القصب عند هذه الناحية المنعزلة من النهر ؟ وهل في الحقيقة ، أم في الحلم ، أن يحصل كل ذلك ؟ وهل أنا فرح لذلك أم نادم ؟ الأرجح أنني لست نادما ، ولا حتى حين أفكر بالعمة مارتين ، المسكينة التي لا بد أنها الان تنتحب لفقداني وهي لا تدري ماذا تفعل .

كنت أتخيلها وأسمعها وأراها وأشفق عليها بدون كثير اقتناع ، لاني هنا في هذا المركب وفي هذا الصباح العابق بالشمس والنسيم أشعر أنني ممتليء بالسعادة التي تغمر كل كياني ونفسي ، وان كنت لا أعرف ما هي النفس في تلك السن من العمر ، لكنني كنت أشعر أن سعادتي عندئذ أكبر من جسدي . وكنت أفكر : « إنه ملاك الرب يحرك السعادة بي . فلاحسن استخدامها » .

كان اليوم الاول مرهقا بالعمل . فقد غيرنا المرسى ، بعدما اقترح كاتزو :

— في وسط هذه البقعة ، اذا مر أحد سيرانا . فلتتحرك من هنا .

وبعده صربت من المجذاف ، توغلنا أكثر في أعباب القصب .
ورسونا بين ثلاث جزر صغيرة مكتظة ، احداها قليلة النتوء ،
وأرضها جافة قليلا ، نبتت عليها أعشاب طويلة وبعض الشجيرات ،
وعلى الاطراف عدد من غرسات سرّة البحر(*) . قال كاتزو :

— هنا سنشعل نارنا • فثمة حطب جاف • هيا نحفر موقدنا •
وحفرناها ، وجاء كاتزو بحصبتين عريضتين مسطحتين ،
وضعنا بينهما كومة من الخشب الجاف والقش • ثم قال كاتزو :
— والان ، الى الصيد •

وجهاز خيطين وشصين • وكنت جاهلا فن الصيد فعلمني ، ثم
أقعى عند طرف المركب وبادرني :

— أنظر الي كيف أفعل ، وافعل مثلي •

وراح الخيطان يتيهان باسترخاء وبدون حراك ، فيما القلينة
طافية على المياه الصافية القاتمة • كان كل شيء جامدا حولنا ،
لا نسمة بين القصب ولا تمويجة على صفحة المياه • وحدها
فراشة تائهة كانت تحوم ، وردية ذهبية ، على علو لا أكثر من
اصبعين عن وجه المياه وتكاد تلامسه أحيانا • أتراها تشرب ؟

وكانت ظلال القصب والصفصاف تخفف من وهج الشمس ،
فلا يعود يتسلل الى تلك البقعة الا نور خفيف ينفلش على المكان

(*) الجوالق : نبات شائك من القرنيات .

(*) سرّة البحر : نباتات مائية من الخيميات .

ليزيد من عتمة البعيد الذي رحت أتساءل ان كان مأهولا .
وأحيانا ، في العتمة المتوغلة الى قعر المياه ، كان يتراءى شهب
ذهبي سرعان ما يختفي ، لتحل مكانه فقاعات من الهواء طالعة
من طحلب .

النتيجة : اصطاد كاتزو أربع سمكات بنفسج(**) وبيوضة
واحدة(***) ، فيما لم اصطد أنا الا فيرونة واحدة .

ومنذ ذاك الوقت ، باتت حياتنا الثنائية مثيرة وحافلة . لم
يعد يعوزنا الطعام ، بعدما بتنا نحن نصطاده ونقله ولا نشتره
جاهزا باردا حضرته أيادي الآخرين .

ويبدو أن سحرا غريبا كامن في هذا الطعام ، إذ يجعل أكله
يتجدد أكثر بحياته اليومية مع الطبيعة . وهذا ما يفسر سرعة نشوء
العلاقة بيننا وبين العناصر الطبيعية الاولى .

من هنا ، أعطي للانسان أن يكتشف المياه والتراب والهواء
والنار .

فالمياه باتت أرضنا الطبيعية : نسكنها ومنها نصطاد قوتنا .
والتراب بات عنا بعيدا لكنه يحيط بالمياه ، حيث نحن ،
بذراعين قويتين .

(*) (*) سمكات البنفسج : من فصيلة السلمونيات .
(*) (*) (*) البيوضة : سمكة نهريّة شديدة بياض اللحم .
(*) (*) (*) (*) الفيرونة : سمكة صغيرة من الشبوطيات تعيش
في المجاري .

والهواء يحمل الينا الريح والعصافير والحشرات ، ويكون
أحيانا هادئا يتهادى بالغيوم ، وأحيانا عاصفا غضوبا ، وفي كلتا
الحالتين يتخطر بين النور والظل •

والنار ، أخيرا ، هي التي تجعل الاطعمة صالحة للاكل •
النار التي تدفئ وتطمئن ، وتجعل للمائدة وقتا لا معنى له بدونها ،
بدون التحلق حولها والتكلم خلالها والتسلية بعدها والنوم في
نهايتها •

حتى ذاك اليوم ، لم أكن عرفت النار بعد ، النار الحقيقية ،
النار في الهواء الطلق • كنت معتادا فقط على النار المحصورة ، في
الموقدة أو الفرن ، النار المطيعة المطوعة التي تشتعل من عود
الثقاب ولا تصلح لجميع أنواع الاشعال ، بل هي مقننة ملجومة
محددة الفائدة • بينما هنا ، في الهواء الطلق ، ووسط القصب
والصفصاف ، كانت النار فعلا هي النار ، نار المخيمات البدائية
القديمة •

ولكن هذه النار لا تشتعل بسهولة • لذلك سحبت صوانة
البندقية ، انما لم يكن معنا صوفانة(*) فاستل كاتزو أليفا من
عصويات يابسة تمكن بعد جهد بالغ من اضرام النار فيها ، ورحنا
تنفخ فوقها بقوة ، كي نضرم النار التي بدونها لا يمكننا الحصول
على قوتنا • وما هي حتى فرقعت الالياف فأضفنا اليها بعض
الاعشاب اليابسة ما لبثت أن ساعدت على توقد النار • وهكذا
بات لدينا بعض الجمر الذي بواسطته تمكنا من وقد التنور بين

الحصبتين ، ثم وضعنا السمكات بعد لفها بأغصان الشمار (**)
حتى ينش جلدھا •

وأكلنا ، فكان ذلك من أشهى ما أكلت في حياتي ، وهو يعبق
بالجمر والشمار والزيت الطري • وشربنا الماء اللذيذ ، وغمسنا
البسكويت بالقهوة •
ثم استلقينا ونمنا •

أما النار ، فحفظناها تحت قبة من الرماد الكثيف ، وبقيت
تتأجج ببطء ، متنفسة من ثقب تركناه لها في الرماد • وهكذا
بقيت حاضرة للتأجج من جديد حتى المساء ، حين أشعلناها من
جديد • ومن حين الى آخر كان يخرج منها خيط دخان يحمل
رائحة الرماد الطري ويتصاعد بين القصب •

لكننا كنا حريصين جدا على اخفاء الدخان عن الاظار ، لان
اليابسة قربنا مليئة بالاطار • فصحيح أن النباتات حولنا في تلك
الناحية كانت تقينا ، انما الدخان اذا أفلت منا قد يشكل دليلا
باتجاهنا يستقدم الخطر الاكيد • وصحيح ان ضفاف النهر لا تبدو
مسكونة ، لكنها قد لا تخلو من عابر : صياد او متنزّه •

وحفاظا على سلامتنا ، قررنا أن نكتشف تلك الناحية •
حولنا كان التيار شبه معدوم ، والعمق كبيرا كما تبيناه من

(*) الصوفانة : مادة إسفنجية تستخدم في الجراحة .
(***) الشمار : جنس بقول من فصيلة الخيميات ، رائحته زكية ،
أوراقه دقيقة وناعمة ، سيقانه مستديرة عارية ، لحبوه
فوائد طبية ، ومنه الشمار السكري •

العصا الطويلة • وكانت الضفاف الترايية متينة بجانبها المياه بقوة
فلا تتفتت • أكملنا في المياه وسط مساحات واسعة من الازهار
المتنوعة المختلفة التي تعرفها مياه المستنقعات • وكنا أحيانا نبعد
من طريقنا طحالب الماء وعرائس النيلوفر • ثم وصلنا الى قناة
خضراء المياه زرقاويتها ، ومغطاة بالناردين الغديري ، وقد نبتت
في وسطها أزهار مختلفة بيضاء ووردية وبنفسجية ، بعضها يمد
سويقاته فوق المياه ، وبعضها الآخر غارق في الماء تماما • وكنا
أحيانا نصادف أزهارا من ذوات الغلقتين الوحيدات التويجية ،
فنندهش لمراها ، أو نصادف سوسنات مائية قزحية جميلة •

اخيرا نزلنا عند طبقة من الحصى ، وتوغلنا في البر قليلا ،
فعلق كاتزو :

— هذا المكان صحراوي •

— يعني أننا في مأمن •

— ربما • ولكن الافضل أن نبقى متأهبين • اذا كان المكان
خاليا فعلا فسنعرف •

— ومن تظن أن يكون فيه سوانا ؟

— لا أدري • ربما أحد مختبئ هنا في مكان ما •

ووصلنا الى سندرة عالية من تلك الاشجار الحرجية ،
فتسلقناها ، وانقشع أمامنا كل المكان • واذا في أعلى النهر واد
وسيع ، مكتظ بالاشجار التي تحجب الرؤية ، وفي البعيد جبل
مرتفع لا يكاد يرى ، كأنه غيمة معلقة • قال كاتزو :

— لقد قطعنا سبعة أميال • وها نحن لم نعد نرى الجزيرة •
انجاز مهم •

— أعتقد أنهم سيلاحقونا بعد ؟

— ربما • انما يلزمهم مركب •

— مركبي لا يزال هناك ، لكنه منخور وتدخله المياه
فلا يصلح •

— ربما أصلحوه • أعرفهم تماما • ثلاثة أيام تكفيهم
ليصلحوه •

وفكر قليلا ثم أضاف :

— حتى الان ، يمكن أن نكون في مأمن ، ولاحقا سنتدبر
امرنا •

في سافلة النهر ، على نحو ربع ميل ، كانت الناحية حيث
كنّا ، وحيث تلتقي بالنهر الذي ينساب من هناك صوب تلال
جسيلة وصخور ، ويلتوي بعدها في منحرجات تتلأأ عليها أشعة
الشمس • ومن الجهة الأخرى ، تمتد مساحات من التراب الادكن
مختلطة بالمياه أحيانا ، وتتصاعد منها أحيانا خيوط من البخار
المسائي ، بعضها يتلأأ مذهبا وبعضها الآخر مزرورق ويتناهى في
ظلال التلال •

أمامنا ، كان منبسط من أرض باثرة ، ليس فيها الا بعض
باقات من جنبات الرباط [مر شرحها آنفا] ونباتات الاثل
[جنبات نحيلة الاغصان] • وكل ما حولها أجرد على كثير الحصى

لا كوخ ، لا دليل حياة ، عدا طيور هائمة قليلة • وكانت تلك البقعة تنتهي الى الجنوب عند قمة جرداء تحجب عنها الباقي من المكان • قال كاتزو :

— قد تكون هناك قرية •

— أين ؟

— في مكان ما ، خلف هذه القمة •

— وكيف تعرف ذلك ؟

ابتسم لحظة ثم أجاب :

— أحس بذلك • لا تسلني تفاصيل • ذات يوم ، سندهب الى هذه القمة • وستحقق بنفسك •

كنت معجبا من وثوق كاتزو الذي بدا لي يعرف كل شيء • ومن أعلى الشجرة كذلك ، كنا نرى بين الحصى خطأ من الأعشاب الطرية يسير حتى الناحية حيث كنا ، تتخلله في بعض الأماكن كتل من الاسل • فقال كاتزو :

— ها نحن على مقربة من نبع • هيا بنا نراه •

وذهبنا اليه • فلم نجد تحت العشب العالي إلا أرضا رطبة • عدنا الى المركب لنأخذ منه معولا ، ثم رجعنا وغرزناه حيثما أشار كاتزو ، فانبجست المياه ، وبقينا نحفر حتى تكونت لدينا بركة صغيرة ، تخلل ترابها بعض الرمل ، فبنينا للحفرة سدا وغرزننا فيها قصبة • انتظرنا قليلا فبقيت القصبة جافة ، ونحن نتحرق للنتيجة • وبعد لحظات ، ظهرت على طرف القصبة نقطة ماء صغيرة كبرت حتى انسابت ساقطة ، وتلتها نقطة أخرى ، ثم ما لبثت المياه

أن انبخت عند أسفل القصبة في خيط رفيع • وفي نحو ساعة من الزمن ، تجمع في تلك الحفرة نحو كوب ماء صاف ، فانبطحنا أرضا وشرب كل منا جرعة ، أحسسنا معها بطعم الطين الطري وجذور البيلسان • ثم ملأت زجاجة حملتها معي ، وعدنا الى المركب الذي أقلنا الى جزيرتنا الصغيرة قبل هبوط الليل •

أعدنا إشعال النار بكل حذر لان الاشجار فوقنا كثيفة ، ويمكن أن تعكس أوراقها وهج النار بسرعة • وازداد نقيق الضفادع معلنا هبوط الليل • وأمضينا بعدها ليلة هادئة •

هكذا مرت الايام اللاحقة كالיום الاول ، والليالي اللاحقة كالليلة الاولى • كان فينا وحولنا هدوء تام • وبعد صحوه الساعات الاولى من الفرح بالمكان ، رصدنا حياتنا على الحياة في هذه المياه الراكدة • بتنا نركز كل تحركاتنا على الشمس والريح ، على الجوع والراحة • وكان فينا سلام داخلي جميل •

كل ما كنا نقوم به ، يستغرق وقتا طويلا ، حتى كنا نجد الوقت قصيرا • ففي المياه الراكدة ، تتباطأ كل التحركات ، وتبطوء جدا سرعة التنقل بين جزيرة وأخرى • هكذا كنا نعيش بدون توتر ، وتتمتع بأيام طويلة كنا نحبها لطولها ورتابتها ، في ذاك الاطار الذي يتخدر فيه الماء والهواء فيرقدان • لكنني كنت أتخيل دائما أن وراء رقادهما الافا من الحيوانات غير المنظورة • ومن يومها لم يعد يفارقني ذلك التفكير •

أحيانا ، وفي النهار بشكل خاص ، كانت تتحرك أنسجة الماء والهواء . وما ان تمضي النسائم الصباحية ، حتى يعودا الى السكينة من جديد .

في نحو الحادية عشرة ، كان كاتزو يقوم بعمليات غطس عمودية على الطحالب العميقة ، فيما أظل أراقب جسمه الادكن يتنقل بين تلك الاعشاب الخطرة تحت الماء . كان يتحرك بكل راحة ، كأنه مخلوق للعيش في الماء لا على اليابسة . وأحيانا كنت أنصوره حيوانا بحريا يعيش تحت الماء ، وأتعجب لدى رؤيته يشق الماء ويخرج ، مغمض العينين ، أدكن الوجه تسقى المياه من شعره الطويل ، فيتقدم من المركب حيث أكون بانتظاره لاتي لا أتمكن من اللحاق به . ويروح يتجفف على الضفة ، في وضح الشمس ، حتى تنشف بشرته الدكناء تماما . وكنت أجهل السباحة فلا أرافقه ، وهو أحيانا يتوغل داخل القنوات فأقلق لغيابه وأتساءل :

— ماذا أفعل اذا لم يعد ، أو اذا غرق ؟!

كان المركب ثقيل جدا كي أتحرك به لوحدي ، وأنا لا خبرة لي مطلقا بهذه الحياة البرية في الطبيعة ، فيما هو بدا معتادا تماما عليها .

فترات بعد الظهر كانت حارة ، لذا كنا ننام في اكثرها ، لا يقلق هدوءها إلا مرور حشرة أو قفزة سمكة شبوطية . لذا كانت قيلولاتنا هائلة ، تحت ظلال القصبات والاشجار القصيرة .

ونشعر بالامان من أي هجوم مفاجيء على الضفة ، فنأكل بعض ما معنا ونحن نتأمل هبوط الليل •

وفي الليل ، الممتلىء نجوما زائغة ، قلما كان كاتزو يتكلم •
ذات ليلة ، وكانا ظلانا متقاربين ، قال لي :

— ثمة حتما ثعلب ماء في الجوار •

— أين ؟

أحيانا كنا نجر المركب الى ثقب من الاشجار والنباتات الخضراء ، حيث الصفصاف الحاني وشجر يشبه الزيتون ، فنربطه الى جذع صفصافة ، ونسيح حتى المساء متأملين طيران الفراشات على صفحة المياه • كنا نتكلم قليلا ، ولم يكن كاتزو يكسر هذا الصمت الا ليقول لي :

— پاسكاليه ، اتبه • ثمة حيوان يقترب •

وكنا نرى تحركا بين النباتات والاشجار ، لكننا لم نر مرة أي حيوان • كان يبقى غير منظور ، أو نحس بخطمه بين القصب ، فنرى جسما أصهب ذا عينين رهيبتين ، ونستبينه فاذا هو سرعوب(*) جاء يشرب ثم عاد يختفي في الدغل •

أحيانا ، وسط هذا الصمت ، كان جردون يظهر بحثا عن

(*) السرعوب : حيوان من الفصيلة السرعوبية ورتبة اللواحم ، يقال له أيضا «ابن عرس» .

طعام ، ويتلفت خائفا ثم ينسحب ، وأحيانا أخرى كانت تطل
حذفة * * * او غرة * * * فتعبر القناة وتختفي بين الاسل تاركة
وراءها •

وحين يجيء المساء من اليابسة ليهبط على عزلتنا ، تستحيل
المياه وردية وذهبية وبرتقالية ، وتستحيل الاوراق صهباء تنعكس
بتموجات ألوانها على صفحة القناة الملساء • وعندها ، نسيح في
وساعة المياه لنقضي الليل ، فنلقي مرساة صغيرة من ثلاثة أمتار
— بين المائتات هنا • غالبا ما أسمع حركته حين يأتي ليشرب •
— في الليل دائما ؟

— نعم • وفي ساعة متأخرة •
— وتكون أنت صاحيا ؟
— بل هو الذي يوقظني حين يضرب الماء بجناحيه •
— كم أتسنى رؤيته •
— لا يمكنك أن تراه الا اذا كان القمر ساطعا •

وبالفعل لم يكن القمر ليلتئذ الا هلالا ناحلا عند الافق
ما لبث ان اختفى • فأكثر ليالينا كانت خالية سوى من النجوم
تشعشع في قبة الفلك بأذناها المتلائلة المتداخلة التي تنعكس حولنا
على نقاط المياه ، فكأنا بين سماءين هادئين ، خارج دائرة المكان
والزمان ، لا يوقظنا من حلمهما الا نقيق سرب من الضفادع •
وكلما يتقدم الليل يزداد النقيق فيمتلئ بأصدائه الليل في
تناغم ، واذا بالعتمة تتجمهر نباتات ومياها وظيفا وأشجارا

(* *) الحذفة : طائر مائي من فصيلة البط .
(* * *) الغرة : طير من طوال الساق ،

فستحيل جوقة من أصوات غريبة ساحرة • ومن حين لآخر ،
تحسهم بطة بين القصب ، أو تنعق بومة على حورة ، أو يخرش
غريّر(*) في دغل ، أو ينزلق دلّق(**) من غصن الى غصن محدثا
وراءه ارتعاشا في الاوراق ، أو يتيه في العتمة ثعلب باحث عن
طعام •

مرة ، قال لي كاتزو :

- الثعلب حيوان حزين • دائم التفكير •
- وهل هو حزين لانه دائم التفكير ؟
- لم يوضح لي كاتزو بل اكتفى بالقول :
- لقد فقد فردوسه • هكذا يروي المسنون عندنا ، وهم
أدرى • انما •• اسمع أنصت جيدا ••

ورحت أنصت ، فاذا بطير رائع الصوت يغرد على الضفة ،
تماما في الوقت نفسه وكل ليلة وعلى غصن الدردارة نفسها ، فكأنه
نداء ليلى تتجاوب معه الناحية كلها بمياها ونباتاتها • كان الثعلب
يتجمد مكانه ، ونحن نحبس أنفاسنا ، لشدة ما كان شجيا تغريد
ذاك العندليب في تلك الليلة من أواخر نيسان • كنا ننام على
تغريده ويبقى نومنا خفيفا فنستيقظ مرة او اثنتين قبل طلوع
الفجر •

وغالبا ما كنا نسمع ، في أول يقظتنا ، ذاك العندليب ما زال

(*) الغريّر : حيوان بين الكلب والسنور ، قصير القوائم أغبر اللون •
(***) الدلق : حيوان يقرب من السنور في الحجم ، أصفر اللون ،
بطنه وعنقه يميلان الى البياض •

يشدو ، انما ببعض البطء كما لو انه في نهايات تغريده ، وكنا ،
من طريقة شدوه في الليل وسط الصمت فوق المياه الغارقة في
العتم ، نعرف أن جميع الحيوانات البحرية تغط في نومها العميق ،
فيهنأ نومنا أكثر •

وعند الفجر ، تتطلع فلا نرى غير طير واحد كبير ، في عب
شجرة كثيفة ، على نحو خمسين مترا من المركب • ولا يلبث أن
ينزل فينقر الماء بمنقاره الطويل وريشه الرمادي ، فنحبس أنفاسنا
من جديد كي لا نجفله •

وبعد قليل ، يظهر رف البلقشات (***) من احدى فتحات
القناة ، كأنه أسطول صباحي يشق طريقه وسط ضباب شفاف
على وجه الماء ، وكأن ظهوره يعلن طلوع الصباح • وعند نحو
عشرين مترا من الضفة يتوقف الرف كله ، يتشرب من أشعة
الشمس الاولى ، ثم يدلف في ثقب من الاوراق الخضراء يغيب
بينها الى الظلال الطرية • وعندها ، يتفرق السرب دليل ابتداء
النهار •

هكذا كانت حياتنا اليومية ، غارقة في النسيان واللامبالاة •
أحيانا يكون الهدوء تاما حتى يكاد يضغط علينا بصمته ، فنروح
نختلق أخطارا وهمية •

مرة ، قال كاتزو بعد تفكير عميق :

— لا نعرف من هم سكان هذه المنطقة • فثمة حتما سكان
في الجوار •

(*) (*) (*) البلقشة : طير من فصيلة البطيات •

— قد يكونون متوحشين •

قلتها ، وأحسست برعشة لذيدة تجري في مفاصلي •
أيكونون فعلا «متوحشين» ؟

هز كاتزو برأسه وأشار الى الضفة اليسرى من حيث نحن ،
وهي مكتظة وكثيفة ، وأردف :

— هذه الضفة تخيفني ! هل تتصور أن نقع في قبضة قاطعي
الرؤوس ، أولئك السود آكلي لحم البشر ؟ ليس ما يستبعد ذلك ،
وسط هذا الاكتظاظ من كل الجهات !

عندها شعرت بخوف أكيد ، لكنه لذيد ، لاننا حين نخترع
لأنفسنا خوفا باختراع خطر وهمي ، نعرف أن لا خطر حقيقيا ولو
اعترانا الخوف • وهذا شعور نادر وطريف •

ذات صباح ، بادرني كاتزو :

— پاسكاليه ، علينا أن نستنبط لنا أسلحة •

وقام بتنجير قوس أطول منه ، ثم أعددنا له أسهما من
القصب • وهكذا ، كلما سمعنا خشخشة في دغل ، رمينا
مصدرها بسهم •

ولكن حيازة السلاح تغري باستعماله حتى في غير حالات
الصيد أو الدفاع عن النفس • وذلك يستدعي دائما هدفا نخترعه
لنرميه • وليس ألد اغراء من العصفور هدفا للرماية ، مع
الاسف • واذا كانت الطيور فقد حولنا بالمئات ، واثقة مطمئنة ،

مؤالفة وجودنا المسالم ، كان كاتزو أحيانا يرمي بطة برية على
خمس عشرة خطوة من المركب ، وهو طير جميل جدا يكون
متبخترا على وجه المياه ، أو مغمسا فيها ريشه الجميل أو حتى
نائما بدون قلق أو خوف ، ومنقاره متغلغل تحت جناحه . كان
كاتزو ، باصبع عصبية ، يشد الحبل مصوبا على الطير ، ثم يفلت
السهم باتجاهه فيرميه .

عند المساء ، كنا نذهب أحيانا لتربص قرب النبع . وكان
كاتزو يقول لي :

— فلننتظر هبوط الليل . ستخرج الحيوانات البرية لتشرب .
أحيانا في النهار أرى معالم مخالبا .

وأشار لي الى بعضها فارتعشنا من الخوف . لكننا لم
نر مرة أيا من تلك الحيوانات ، بل كنا نتخيله أحيانا وسط الارض
البائرة ، فيبدو لنا مخيفا ونبقى ساكتين مترقبين . ويؤكد لي
كاتزو :

— أنا واثق من أنني سمعت خطاه . لم أكن أحلم .

— وأنا رأيت أذنيه تتحركان .

تلك الليلة لم نكن ، فعلا ، نتخيل . صحيح أن الرؤية كانت
ضعيفة بل شبه معدومة ، لكننا رأينا شكلا ، على مقربة منا ،
وسط البراح [الارض البائرة] . كان يظهر ويختفي سريعا . وإذا
كنت فعلا لم أر أذنيه تتحركان هذه المرة ، كما كنت أكدت
الكاتزو ، فقد خيل لي أنني أراه كله ، مما دفعني الى القول :

— كاتزو ، أرى أنه حيوان هائل متوحش •

عدنا الى المركب ، وتناقشنا بأمر الحيوان ، فبات يكبر في واقعنا ويتخذ جسما هائلا ذا ذنب كبير (لماذا الذنب ؟ لا أدري •
ربما تأثرا بالاسود والنمور) ومن فصيلة الضواري • قلت لكاتزو :
— مع أننا لم نر التماع عينيه •

— يغمضهما ليخفي عنا التماعهما فتتطلي الحيلة علينا •
— أعتقد ذلك ؟

تساءلت وقد أثارتنني فكرة الحيلة ، فطمأنتني كاتزو :
— هذه حيوانات تولد معها الحيلة •

وتوغلنا في النقاش لعلنا نصل الى اكتشاف طبيعة هذا الحيوان وفصيلته واسمه • لم نكن نرغب في أن يكون كلبا أو ذئبا • فطالما تخيلناه وحشا حقيقيا ، من غير المنطقي أن نجعله حيوانا أليفا من كل الناس • واذا لم نستطع تحديد هويته ، فطرات لكاتزو فكرة اعجبتنني إذ قال لي :

— إنه دب • « دب نهري » • سنسميه هكذا • ففي هذه المنطقة « دبية نهريه » • ألم تر في حياتك « دبا نهريا » ؟

بدا اختراعنا الوهمي بسيطا : انه اذا « دب نهري » • « دب نهري » كبير ، خطر ، تائه ضائع شرس ، يغضب لاقل حركة فيقفز الى فريسته بضراوة ، بضراوة قفزة لا يأتيها النمر المتوحش • وهذا « الدب » يضيف كل تلك الناحية من الارض البائرة التي لا يعيش فيها حيوان الا هو ، ولا ينبت فيها عشب أو

نبات • ذلك أن « الدب النهري » يجب الوحدة ويسيطر على البرية القاحلة قرب الانهار ، وحين يتقدم به العمر يمسي أكثر شراسة وضراوة حتى ليجفل منه أعتى الوحوش • و « الدب النهري » لا يجدي صيده ، لأن جلده قاس جدا ولأنه اذا جرح يندو خصما رهيبا • وهو لا يخرج تائها الا في الليل ، لذا يصعب تحديده في الظلمة • وعلى أي حال ، فهو بات من الحيوانات التي تنقرض ، وقد يكون هذا الذي هنا آخر « دب نهري » في هذا العصر •

ومع هذا «الاختراع» الوهمي لحيوان وهمي ، شعرنا بالخوف والمرح معا • وقلت لرفيقي وأنا محمول بغبطة الاكتشاف :

— كاتزو ، علينا أن نعود الى الترقب والرصد • في الليلة التالية ، عدنا الى الترصّد من جديد ، على أعلى شجرة في الجوار • فقد قال كاتزو :

— « الدب النهري » لا يتسلق الشجر • وبقينا معلقين ، على الغصن العالي لاحدى الدردارات ، طوال الهزيع الاول من الليل • لكن « الدب النهري » لم يأت • قال كاتزو :

— لقد كشفنا •

ذلك أن ل « الدب النهري » حاسة شم غريبة •

لكنه بعد يومين أخافنا جديا • فنحو العاشرة ، سمعنا جلبة
أشجار تتكسر في الغابة الصغيرة المجاورة • وكانت أوراق الشجر
تهتز ، والاعصان تتحرك بقوة ، فيما صفحة المياه تتماوج بكل
عنف • وما هي حتى لهث الحيوان بقوة وشخر وجأر • فهمس لي
غاتزو وهو منبطح على بطنه في أرض المركب :

— إنه يستحم • إياك أن تتحرك • يقال إنه يسبح •

عندها شعرت بخوف حقيقي •

لكن الحيوان لم يظهر ، بل اختفى واختفى معه كل حس او
صوت •

بقينا صامتين الى أن غلبني النعاس ، فيما گاتزو بقي سهران
يراقب الشاطئ والضفاف حتى الصباح •

منذ ذلك اليوم ، بدأ القلق يساورنا بجد • وكان ذاك
شعورا غريبا : بدأنا نخاف أن نكون فعلا خائفين • ذلك أن
الحركة الليلية تلك ، كنا سمعناها فعلا لا توهمنا • يعني أن حيوانا
جاء فعلا يقلق صمت تلك الناحية التي كنا اعتقدنا أن « الدب
النهري » وحده موجود فيها بين كل الحيوانات • مع ذلك بقينا
على اقتناعنا بأن هذا « دب نهري » مع التساؤل الذي لم نجد
له جوابا : و ... ماذا إذا لم يكن « دبا نهريا » ؟ أي إذا كان
حيوانا متوحشا حقيقيا ؟؟

اقترح گاتزو :

— الافضل أن نغير هذا المرسى •

عند المساء ، تسللنا بحذر • توقفنا بحذر • توقفنا قليلا في تلك الجزيرة الصغيرة ، حيث حملنا بعض الحطب الجاف ومعه جذوة النار التي حصرناها في وعاء فخاري وضعناه تحت المقعد عند قعر المركب •

وبعد إلقاء نظرة وداعية على مرسانا ذاك ، غادرنا تلك الناحية الظليلة • واتجهنا في القناة التي مع توغلنا راحت ضفتها تضيقان حتى باتت تفقا من الاوراق الكثيفة الغريبة الضائعة وسط أرخبيل الجزر الصغيرة بين الصفصاف الحاني من كل نوع وكنا نحاذي في مرورنا القصبات الفارعة ونلامسها فترتج بينها أعشاش العصافير من أبي الرؤوس والطيور المائية من فصيلة البط ، وجميعها بمستوى الماء • وكنا كلما تقدمنا أصبح النفق أكثر ظلمة ، انما بدا في آخره ضوء بعيد • كان تقدمنا بطيئا وصامتا ، لا يعكره الا مرور الاوراق على جبهتنا او وجهنا ، ومرور الحشرات الطائرة حولنا أو بيننا أسرابا ودوائر • وأخيرا أطللنا على مساحة أخرى مسورة تماما بالقصب والاشجار •

كانت تلك ، بحيرة غافية يشعشع نور الغروب في آخر خيوطه على صفحة مياهها الهادئة التي تحرسها أشجار من الحور متلازمة حتى لتكون أوراقها المتلاصقة المتجانبة سياجا لا منفذ فيه • من تلك الحورات ما كان مع طرف المياه ، ومنها ما كان أبعد ، يسد الافق الذي تنسحب منه شعاعات الشمس الاخيرة • أما الشاطئ فكان صخريا ، ومن أعلى جرفه ظهرت غابة كثيفة من

السنديان الاخضر ، انعكست رؤوسها في المياه الصافية الهادئة
التي تحيط بجزيرة صغيرة جدا قائمة في وسطها •

كانت تلك الجزيرة مكتظة بأشجار السرو العتيق • وتقدم
بنا المركب ببطء صوب الجزيرة التي بدت مسكن الليل والسكوت
إذ لم يكن يصدر عنها أي صوت ، رغم ما فيها وحولها من نباتات
وأشجار ومياه •

بعد قليل توقف المركب بين الجزيرة والضفة ، وأرخينا
المرساة وسط مشهد الجزيرة وصمتها اللذين كانا يثيراننا فعلا ،
حتى أننا تناولنا عشاءنا بدون أن يقول أحدهنا كلمة واحدة •

لم أنم جيدا تلك الليلة • فلشدة ما كان السكون مخيما
وسكوتنا كاملا ، راحت تتراءى لنا تموجات حياة لا تحديد لها :
أصوات غامضة أو تنهدات ، وفي البعيد همس غريب ، كأنه خطو
متردد على الرمل ، أو نفس شخص خفي ، أو كأن تحت صفحة
هذه المرأة الهادئة تحركا سحريا للمياه السرية •

نحو منتصف الليل ، سمعنا وقع خطوات على الضفة ، وكان
ذاك أكيدا وجليا ، من صوب الجرف الصخري •

في اليوم التالي رحنا نكتشف الجزيرة كلها • كان فيها طريق
يقود الى كنيسة في وسطها ، تفتت حجارتها بفعل الامطار
والرياح فبدت هرمة عتيقة ، ووراءها قبران من الحجارة غائسان
بين الاعشاب البرية تحت أشجار السرو العالي الذي تنغرز
جذوره حتى المياه العميقة •

بعد الجزيرة ، رحنا نكتشف الجرف الصخري وغابة
السنديان الاخضر بدون أن تتجاسر على التوغل أكثر داخل تلك
الناحية ، بل توقفنا عند نهاية الارض البائرة • لم نجد أحدا ،
ولا منزلا • في السماء ، فوقنا ، رأينا صقرا كبيرا يحلق منفردا •
قلت لكاتزو :

- هذه البلاد حزينة •
- معك حق • ليست بلادا كسائر البلدان • فيها أرواح ••
- من قال لك ؟
- ألم تسمع مثلي ليلة أمس ؟ جاءت روح تتحرك قربنا •
- صحيح •• بلي •• سمعت •• وهل أنت تعرف
ما هي الروح ؟
- كلا • لكنني أراها ، اذا اختبأنا هذه الليلة يمكن أن
نراها • فقد ترجع الليلة حتما الى المكان نفسه •
- أحسست بخفقان قلبي ازداد • فأردف كاتزو :
- نحو العاشرة يغيب القمر فتزداد العتمة • وعند أسفل
الجرف ثقب كبير نقف عنده وتربص •
- خفت كثيرا حتى بدا عليّ ذلك ، فبادرني :
- لماذا تخاف • يجب أن نرى هذا المشهد • كلانا رجل •
- ولم أجب ، أردف قائلا :
- اذا كنت خائفا ، أذهب وحدي •
- خجلت من ذلك ، لكن خوفي ازداد حتى قلت لكاتزو :
- إن ما تفعله خطر • وسنستحق عليه العقاب •

هز بكتفيه غير مبالي ، وظل صامتا حتى اضمحل القمر •
عندئذ ، خلع ثيابه ووضعها على رأسه ، ثم انزلق في المياه وسبح
حتى الجرف ، وأنا على الضفة أتأمله ، حتى اذا بلغ الضفة الأخرى
أعاد ارتداء ثيابه واختفى •

بقي المركب عند الجزيرة ، حيث لا يمكن رؤيته عن الضفة
بسبب اختفائه خلف ظلال الأشجار • جلست على المقعد عند
جؤجؤه أراقب كل الشاطئ • مر وقت ولم ألمح شيئا • طال
انتظاري ولم أنعس ، لأن فضولي كان يدفعني الى الانتظار أكثر
لعلي أرى شيئا •

نحو منتصف الليل ، سمعت ما كنت سمعته في الليلة السابقة:
حركة على طول الشاطئ ، دخلت في دغل ونزلت حتى الرمل •
ولمحت علامة بيضاء صغيرة ، ترددت قليلا ثم اقتربت من الماء •
عندها طاش الدم في رأسي ، ففككت الحبل من المرسى ودفعت به
مستعينا بالعصا ، فأنسأب على صفحة المياه المظلمة وأنا أفكر :
« العتمة شديدة فلن تراني الروح • أنا رأيتها لأنها بيضاء مضيئة
في عتم أسود » • لكنني رغم بياضها لم أتمكن من التفرس بها
جيذا • هل يكون لها شكل ؟ رحت أتقدم صوبها ، ورغم الظلمة •
وفجأة ، بدرت منها صرخة خفيفة إذ كنت اقتربت منها كثيرا •
وسمعتها تقول : « رباه ! هذه روح ! » فاستغربت أن تعتبرني
هي روحا ، واستعدت هدوئي سائلا :

— وأنت ، ما اسمك ؟

فقرت الروح هاربة ، لكن گاتزو خرج فجأة من مخبأه
وقبض عليها صارخا :

— أمسكت بها • انها فتاة •

وكنت وصلت الى الضفة عند گاتزو • كان يمسك الفتاة
وهي لا تقاوم • بدت من سننا وان كنا لا نراها بوضوح في تلك
العتمة الشديدة • وراح گاتزو يطرها بالاسئلة :

— ما تفعلين هنا ؟ من أنت ؟ أين تسكنين ؟

لكنها لم تكن تجيب ، ولا بدت خائفة منا • خفف گاتزو من
لهجته مردفا :

— لا تخافي ، لن تؤذيك •

وأفلت لها قبضتها فقالت :

— أنا أعرفكما • أتما اللذان كانا عند تلك الناحية المعزولة
من النهر قبل أسبوع • البحث عنكما جار في جميع
القرى •

أصابني صقيع الخوف ، واستفهم گاتزو بكل هدوء :

— صحيح ؟ ومن يبحث عنا ؟

— عندنا ، في بيرويه ، الناطور •

— وكيف يبحث عنا ؟

— يضرب على الطبل الكبير في الحادية عشرة قبل ظهر كل يوم

ويعلن ذلك بصوت عال ، ثم يعود الى منزله • وهكذا منذ أربعة

أيام ، حتى علم الجميع في القرية بأمركما •

— إذاً يمكننا النوم باطمئنان • وأنت ، هل ستشين بنا ؟
— أبدا • لكن شخصا آخر يبحث عنكما أيضا • وهو قادر
على اكتشافكما •

هنا بدا على گاتزو بعض القلق ، فاستفهم :

— وكيف هو ؟

— كبير الجسم أ سود ، وصل من النهر على قارب صغير
منخور •

ففكرت سريعا بكل هلع :

— لقد هلكننا • إنه بارگابو •

وأكملت الفتاة :

— وهو هنا منذ يوم أمس • وصل في الوقت نفسه مع المهرج

سأل گاتزو باضطراب :

— أي مهرج ؟

— مهرج المسرح • فغداً الاحتفال السنوي تحت شجرة

الدردار كالعادة ، ليلا بعد العشاء • هو نفسه يأتي كل عام • العام

الماضي جاء معه مهرج آخر • هذا العام جاء لوحده ، وهو عجوز

هرم •

وسكتت ، وسكت معها گاتزو • ثم قال فجأة :

— يجب أن نعود •

رافقناها حتى حدود الغابة ، وهي تتقدما وعيناها تثقبان
الليل كعيني گاتزو • ونظرا لكثافة الاشجار وما تحدثه من ظلمة
شديدة ، استغرب گاتزوا • ونظرا لكثافة الاشجار وما تحدثه من
ظلمة شديدة ، استغرب گاتزو نفسه كيف هذه الفتاة لاتخاف •
فسألها :

— لماذا تأتيين ليلا الى ضفاف المياه ؟

لم تجب ، فواصل گاتزو سألته بألحاح • وكان في
صوته من الحنان ما جعلها ، أخيرا ، تتكلم • • واذا بنا نفهم أن
أهلها جميعهم ماتوا • وكانت تعمل خادمة لدى عجوزين طيبين ،
ليس لهما إلا حفيد وحيد في الثانية عشرة من عمره • وذات يوم
ذهب الثلاثة في رحلة طويلة ، وتركوها لوحدها في المنزل مع
خادمة ثرثرة تنهرها دائما بعنف • وكان الثلاثة بعيدين ، في بلاد
نائية ، وحزينين لهذا البعاد وكذلك هي حزينة • لكنهم ، لسبب
مجهول ، لم يعودوا يتجاسرون على العودة الى منزلهم • لذلك
هي تأتي ، ليلا ، فتصلي حتى يعيد الله الثلاثة الى القرية حيث
ينتظرهم الجميع •

أثرت بنا هذه القصة وكانت الفتاة متأثرة جدا وهي ترويها ،
وما بلغت نهايتها حتى أجهشت بالبكاء • وتأثر گاتزو كثيرا
فسألها :

— ما سمك يا صغيرتي ؟

— هياسينت • [ومعناها ياقوتة] •

وأكملت تبكي •

في تلك اللحظات ، سمعنا في الغابة وقع خطوات ، تبين أنها
خطوات حيوان • خفت وقلت لگاتزو :

— هذا هو « الدب النهري » •

فقلت الفتاة بكل هدوء :

— لا • بل هو حماري • جاء يأخذني •

وبالفعل رأينا في الظلمة طيفا ثم خرج الحمار الى بعض
الضوء ، فبادرته الفتاة :

— تعال ، تعال • تقدم على مهل • يجب ان لا تخيفهم ، هذه
المررة ••

وتقدم الحمار فبدا عليه لباس لائق • بادرنا الفتاة :

— هذا أجمل حمار في القرية •

ربما كانت تمزح ، لكنها عادت الى ملامح الحزن وقالت :

— غدا لن أعود الى هنا ، لانني أريد أن أتفرج على المهرج
الذي سيلعب للاولاد وسط ساحة القرية ، في ضوء القمر •

بقينا صامتين ، فامتطت الفتاة حمارها وتوغلت به في عتمة
الغابة •

اليوم التالي كان بطيئا ، وأمضيناه بدون تسلية ، بينما
كنا ننشغل أكثر في الايام السابقة ، فنراقب عصفورا أو ذبابة أو
ضفدعة أو فراشة • كان گاتزو منتحيا جانبا ، يجيني بايجاز شديد وعاد
اليه من جديد ذاك الوجه العابس المقطب الذي لم أكن أحبه ،

والذي يعطيه مزاجا منفردا يبعده عني * شعرت بالحزن وبقيت صامتا أنا أيضا *

في أواخر بعد الظهر ، لم أعد استطيع الاحتمال ، فقفزت من المركب الى البر ، ورحت في نزهة *

تحت الصنوبر ، كان الطقس حارا انما النور لذيذ وكانت سناجب صهباء تراقبني من مكانها في أعلى الشجر بكلطمأنينة * ارتحت لمرآها ، ورحت أمشي في الغابة ناسيا حزني ومتقلبا بين الاشجار مارا ببعض الحمام البري وبعض الطيور المختلفة المتقلبة فوقي من رأس شجرة الى رأس أخرى * وبين الاوراق أيضا ، كانت رفوف كثيرة من العصافير تغرد بدون انقطاع ، وأنا أصعد في طريق الغابة صوب تلة عالية ، ما بلغت حتى أشرفت على كل المنطقة ، فجلست على حجر *

مع الغروب ، بدا النهر منسابا في البعيد ، وفيه مركب على متنه صيادان * الى يساري تنتصب السنديانات العالية الخضراء والصنوبر الباسق ، تتخللها مع ذاك الغروب تموجات زرقاوية ومجاري سيول خبازية تختلط في مشهد تنسحب عنه خيوط الشمس الاخيرة *

في البعيد ، من زاوية محددة ، بدت قرية من ستة بيوت أو سبعة وبرج وجرس صغير ، تتصاعد من ورائه السنة دخان * وفي مكان آخر من تلك التلال ، بدى الطريق الى القرية * أما الجبل حولي فكان أجرد لا حركة فيه ، الا حمار على الطريق ،

يتجه صوبي وعلى ظهره ققتان يسير بهما بطيئا ففكرت :
« آه ، انه حمار ياقوته • سأرى ••• » •

وانتظرت وصوله بقلب خافق ، لكن الحمار انحرف فجأة
الى اليمين وغل في غابة الصنوبر •

بعدها بقليل ، بدأت العتمة تنتشر في المكان وأنا غير
متنبه لها ، حتى اذا تنبعت ، كان الليل خيم تماما فعدت سريعا الى
المرسى •

وجدت المركب ما زال في مكانه ، لكنني ••• لم أجد
گاتزو •

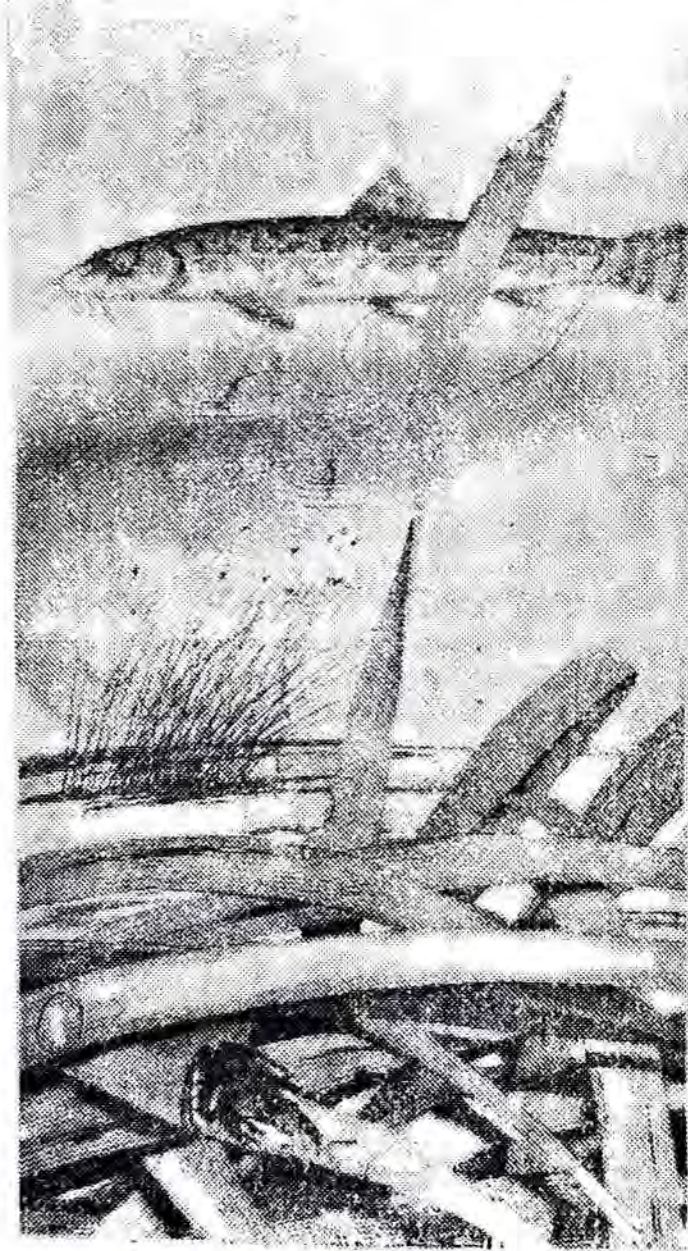
الفصل الرابع

المفاجأة

(المفاجأة)

أَيكون غاب نهائيا ؟

أحسست بهذه القناعة ، لكنني لم أشأ تصديقها . لذلك
بقيت على انتظاري . وكنت أقول في نفسي : « لا بد أن يعود . »



قد يكون في جولة . أنا أخطأت في تركه لوحده . لا بد أنه ضجر
ولم أكن شديد الاقتناع بما أفكر . لكنني ، مع ازدياد غيابه ،

رحت أفقد الامل برجوعه * وكنت أضعف أمني كي أتعزى قليلا ،
لكن ذلك لم يكن يجديني ، لاني اقتنعت أخيرا أنه ذهب ولن
يعود *

كان كل ما حولي يؤكد أنني لوحدي : الحيوانات وأصواتها
المياه وصمتها * كل شيء * وكانت بالقرب مني ضفدعة تنق حزينة
عند بحيرة صغيرة ، وتبدو هي الأخرى وحيدة وسط عب البقلة
المائية * وقريبا منها غراب كبير الرأس مختبئ في عب حورة على
الضفة الأخرى ، يشكو وحدته وعزلته الى غراب آخر قبالة على
حورة في وسط تلك الجزيرة الصغيرة ، فيجيبه هذا بأناة وحزن
ويكون حوار حزين يعبر بنعيقه مياه المستنقعات المجاورة * وإذا
لم يكن يأتيني أي صوت من المياه الساكنة ، فلأن المستنقعات
تخاطبني بلغة الصمت * وبصمتها كنت اكتشف وحدتي أكثر *

ربما كنت خائفا ، لكن حزني أن أكون وحدي كان أقوى
من خوفي * فلم يعد عندي إلا أن أخشى ما سيحدث لي * كنت
أتوقع أخطار غامضة من أصوات غريبة تهاجمني *

مع بزوغ القمر ، ازداد حزني * وحين انعكست أنواره
النضية على صفحات المستنقعات الهادئة ، اكتشفت كم وحدتي
هائلة * كنت من العزلة بحيث رحت في سكوتي أنادي گاتزو ،
بدون صوت ، خوف أية همسة مني تتردد صراخا في ذاك
السكوت التام * وفكرت : « قد يعود الى القرية * ولكن ، كيف
كان له أن يذهب بدوني » ؟

شغلتنني فكرة خيائته والتخلي عني ، فنسيت حزني وخوفي *
لقد كسر ، بذهابه ، أجمل صداقة في حياتي * تأثرت لذلك كثيرا *
فلن أجد مطلقا صديقا مثله قويا شجاعا ماهرا حاذقا اكثر مني في
كل شيء * على أي حال ، صديقي الاول *

امتلكني شعور داخلي عميق بأنه لن يعود ابدا ، فاعترااني
اليأس وقررت مغادرة المرسى الحزين الذي بت فيه لوحدي ،
وصممت على الذهاب بحثا عن صديقي *

افترضت أنه في هذه القرية المجاورة التي رأيت بعض بيوتها
وقبتها وبرجها عند مغيب الشمس * وتذكرت الطريق الذي رأيت
الحمار يصعد فيه ، فبدا لي سهلا سلوكة اذا تتبعت طريق
السنديانات ، فتوجهت في البدء الى ذاك الطريق الذي ينعكس
عليه ضوء القمر في وضوح * وقد ساعدني القمر كثيرا تلك الليلة
فأضاء لي الطريق ، ونوره الرفيق خفف عني خوفي ، لان القمر
ينعش بنوره النفوس الرهبة أكثر من أي كوكب ليلي آخر *
نور القمر يبدو قريبا منا ، يلامسنا ، يلاطفنا ، يرافقنا ، فنشعر
بأنه يحرسنا ويحنو علينا ويبسط حنانه على الريف كله * من هنا
يأنس له الاطفال حين يصحون ليلا ، فيجدونه يدخل من نوافذهم ،
وحين يعودون الى النوم يحمل اليهم القمر أجمل الاحلام *
ويبدو أن ما حصل لي تلك الليلة ، انما حصل في حلم *

صحيح أنني لم أكن نائما في غرفتي ، ولكن كيف أفسر ذلك
ما فعلته ليلتئذ ، وما رأيته وما تخيل لي أنني سمعته ، وكله جرى
ببساطة مذهلة ، إلا أن يكون كله جرى في الحلم ؟

غابة السنديان كلها مغمورة بضوء القصر • وبين الأوراق
الغارقة في العتمة ، كانت خيوطه تتسلل في أعمدة زرقاوية نصبح
أعصان الأشجار جميعها بزرقة نجمية • وحين خرجت من الظلمة
الى واحدة من تلك البقع الضوئية ، أحسست أنني بت جسما
صغيرا مضاء • قطعت الغابة بدون تعثر ، حتى بلغت الطريق الذي
لم يكن صعبا إيجاده لانه مضاء تماما ، مما جعل سيري فيه سهلا
ومناسبا ، بكل ما على جنبه من أشجار لطيفة كأنها تحاورني أو
تشركني في أخبارها وأسرارها • ولشدة ما كان الطريق لطيفا ،
بدا كأنه خارج المكان والزمان وينزرع في نفس المشاة من أصدقائه
حتى لا يعودوا يعرفون الى أين هم ذاهبون وفي أي وقت يجب أن
يصلوا الى حيث هم ذاهبون • فاجمالا هذه الطرقات الاليفة
لا تنتهي في مكان ، واذا انتهت ، ففي أمكنة أجمل منها إنفة
هكذا كانت حالي مع ذاك الطريق الجميل في تلك الليلة
القمرية اللذيذة • فكأنه موجود ، على خصر تلك التلال ، فقط
ليقودني الى تلك القرية المنعزلة الوحيدة ، كأنها قرية من خارج
هذا العالم ، لشدة ماكل الذي فيها يبدو بعيد الاحتمال واكثر من
مرة خلال تلك الليلة الغريبة خيل إلي ، بأفكاري الساذجة ، أنني
في بلاد الجن التي يحلم بها الاولاد وهي على أطراف الجنة •

نزلت الى القرية من أعلى التلة . كانت شوارعها مقفرة .
وبيوتها مهجورة ، مع أن منها لا تزال تتصاعد رائحة الخبز
الطازج وحساء الحنطة ، مما يشير الى ان السكان غادروا قبل
وقت قليل ، ولم يعد في القرية الا الهدوء والعتم .

حتى الكلاب ، المشاكسة عند مداخل القرية ، كانت غادرت
المداخل لاحقة بأسيادها . الدجاجات كانت تنام . والققط حتما
غادرت مع المغادرين .

أكملت في الطريق الملتوي ، وأنا أمر من منزل الى آخر ، في
صمت مطبق ، حتى وصلت الى ساحة . وهناك انكشف لي السر
كئ : ها القرية بكاملها هنا ، برجالها وحيواناتها ، والجميع في
انتظار .

وكان الانتظار بدا واثقا من نهاية قريبة ، وبدا أهل القرية
ظيين صبورين ، ينتظرون برؤوس غير متوترة ، وبأنظار شاخصه
في هدوء ، والجميع موزعون في صفوف مرتبة . الصف الاول
لجلوس على مقعد خشبي كبير ، يتوسطه العمدة ، بوجهه الاملس
وشعره الكثيف الابيض ولباسه الجديد الذي كأنه منشى حتى
لم يكن يجسر على تحريك رأسه خوف انقراط القبة . كان ينظر
أمامه تماما بصبر وصمت مما يضفي على هيئته ، كعمدة ، هيئة
اضافية .

وبسبب جمود العمدة ، كان كل الباقيين جامدين احتراما ،
الى يمينه كاهن عجوز ، يداه مكتفتان على بطنه كالعادة ، ووجهه

المحسر المنتفخ يدل على اضطراره بشؤون الرعية واحتفالاتها .
والى جانبه ، الكاتب العدل ، العجوز هو الآخر ، الناحل كسمار ،
فاغر الفم بكل بلاهة ، واحيانا يحك أرنبه أنفه .

الى جانب الكاتب العدل ، يجلس الطبيب المتكرش بسترته
التي من جلد «الالبكة» (حيوان ثديي) ، وقبعة من القش ، ومن
حين لآخر يمسح نظارتيه بمنديله المرقش ليرى أوضح . وكان
هو الآخر عجوزا ملتحميا .

الى يسار العمدة ، كان الناطور يغفو متعبا ، كأنه أكثر رجال
العالم شيخوخة ، بلحيته العسكرية الحادة والشريطة الذهبية وحل
قبعته .

الى جانبه عجوز عريض الكتفين تنفلش لحيته الأبيضاء على
صدره ، ومن حين لآخر يرفع أنفه الكبير ليشم الهواء أوسع ،
بدون أن تتحرك في وجهه الادخن عيناه الخضراوان . انه الملاح
القديم ، مفخرة القرية .

الى جانبه ، بل تحت كتفه ، يتوقع بائع التبغ ، وهو متقاعد
جاوز الستين ، غليظ الشاربين ، ولا يبدو كالاخرين مهتما بكل
ما يجري .

كان ذلك مقعد الوجهاء . خلفه ، تجمع القرويون ، النساء
أولا في ثلاثة صفوف : الى اليمين جميع الجدات ، في الوسط
النساء المتزوجات ، والى اليسار الانسات تجتمعن في هرج ومرج

خلف النساء ، وقف الرجال في أربعة صفوف ، وبينهم
السمين والناحل ، الملتحي والامرد ، انسا على وجوههم جميعا
أمارات الهدوء والبساطة حتى السذاجة .

كان الجميع يتطلعون الى ناحية واحدة : صوب شجرة دردار
هائلة تنبسط أوراقها ، كما القبة، فوق كل الساحة . وفي أغصانها
المنخفضة ، علق فوانيس صغيرة ومصاييح كبيرة ملونة . وتحتها
انبسط مسرح صغير من القماش ، وعند طرفيه ، أمام الوجهاء ،
وقف الاولاد خلف مقاعد المدرسة ، الفتيان من اليمين والفتيات
من اليسار ، ينتظرون ، هادئين كال كبار ، لحظة ما .

حتى ذلك الوقت ، كانت الستارة لا تزال منسدلة على
المسرح الصغير ، وعليها رسم جميل يمثل حمارا جالسا في مقعد
وثير ، يلبس نظارتين ويسك كتابا ، وأمامه ولد جاث يصغي اليه .
وفوق الحمار والولد ، قناع متوج بالبلاب ، خفيض العينين ،
ينظر الى الحمار والولد بابتسامة ذكية .

خلف المسرح ، كانت الكنيسة غارقة في الظلمة . وفوق
الكنيسة والظلمة والمسرح وأهل القرية والمصاييح والفوانيس
وشجرة الدردار ، كانت السماء الوسيعة بقرها النيسانى الغامر
الليل بشلالات فضة .

لم أتبّه الى ما جرى في البدء ، لاني كنت مشدودا الى
المشهد الساحر حولي بكل تفاصيله . ولكن ما أذكره أن كل
شيء ابتداء بسماع صوت ، خلف المسرح ، يغني بصوت مرتعش

عجوز دخل فورا الى أعماق قلبي ، وكان مرشدا الى ما سيجري
عند ارتفاع الستارة ، لانه راح يعدد الشخصيات التي ستظهر
أمامنا باكية ضاحكة وتتصرف مثل البشر تماما ، ولذا علينا
تصديق ما ستفعله على المسرح .

بعد هذه المقدمة القصيرة ، ارتفعت الستارة على مشهد
بستان ذي ثمار وفيرة كانت محط افتخار البستاني ، الوافف بينها
بكل اعتزاز ، وحوله زوجته وابنه يركضان لالتقاط الفراشات
الزرقاء ، وهو سعيد بهما ، ولذا منع عليهما معاشرة البستانيين
الباقين ، وكانا يطيعانه .

ذات يوم ، مر متسول مرهق بالجوع والعطش ، رأى
دراقة متدلية فوق السياج ، فقطفها وهم بأكلها فظهر البستاني
غاضبا ونهال عليه ضربا بالسوط حتى وقعت منه الدراقة وفر
متألما من ضربات العصا ، بدون ان يتذمر أو يشتكي .

ثم تفهم أن هذا المتسول هو مبعوث الملك . ففي اللوحه
الثانية ، عند تغيير المشهد ، يظهر الملك نفسه على غيمة ، غاضبا
متوترا ، يتحدث عن البستاني يهياج جعل الحاضرين كلهم يخافون
وخاصة البنات . ثم اختفى وهو يزبد بشورته وهياجه ، وسبعنا
فرع طبول خلف المسرح ، مما يعني أن الملك ينفذ انتقامه لمبعوثه .
في المشهد الثالث ، عاد المسرح الى البستان الارضي ، حيث
كان ولد يلعب مطمئا ، بينما تحت شجرة الدراقن [حيث كان قد
مر المتسول] ، غجرية عجوز ساحرة تترصد الولد بعينين متقدتين

شرا • لمت ثمرة الدراق عن الارض ، وبعدما تذوقتها اعادتها عند
جذع الشجرة • وحين التفت الولد ورأى الثمرة ، أكل منها فوق
مغميا عليه • عندها انكبت الساحرة فوقه وحملته في الفضاء
البعيد •

ومرت سنوات • • وظهر على المسرح [في المشهد الرابع]
جسع من الغجر كان الولد يعيش بينهم ، وقد كبر ، لكنه فقد
ذاكرته بالسهم الذي دسسته الساحرة في الثمرة فبقيت كل ذاكرته
فيها • كما لم يعد عنده شعور بالحسنى او بالخير • لذا بات أسوأ
ولد في القبيلة يكذب ، يشتم ، يغش ، يسرق ، وقبضته دائما على
السكين حتى بات الجميع يخافونه •

أما أهله ، فنسيهم من زمان ، منذ فقد ذاكرته • لكنهم ،
هم ، يتذكرونه ، وما زالوا مقهورين لفقدانه ، بدليل أن الاشجار
راحت تشر موسما خلف موسم ، والبستاني لا يأبه ولا يقطعها ،
وقد أصابته الشيخوخة ، ولم يفتأ يبكي من الصبح حتى المساء في
غفلة عن زوجته ، حتى شاب شعره من القهر ، ولم يعد في صدره
شيء من زهو الماضي • لكنه ، وزوجته ، كانا ما يزالان يأملان
عودة ابنهما ، وينتظرانه كل يوم • لذا كانا يتركان الباب مفتوحا
حتى يدخله بدون أن يطرقه • واذا بالغجر يصلون ذات ليلة
يختبئون في الغابة • في تلك الليلة نفسها ، وصل متسول يستجدي
وكان جائعا وعطشان • تذكر البستاني ذاك المتسول في الماضي ،
فقدم اليه سلة من الدراق • لكن المتسول لم يأخذ الا دراقة
واحدة ، عضها بدون أن يأكلها ، ثم قال للبستاني :

— إحفظها جيدا قرب مخذتك ، واصبر بعد • سيجىء يوم قريب يأكلها فيه أحد •

غاب المتسول ، وكان العجر شاهدوا كل ما جرى ، فقالوا : « هذا البستاني غني وسنسرقة » • واتفقوا على أن يقوم الولد معهم بالسرقة التي هو بارع فيها •

مع غياب القمر واشتداد عتمة الليل ، نعب البوم فدخل الولد الى البستان حتى باب البيت • واذا وجدته مفتوحا ، تردد قليلا ، ثم دخل وهو يشعر بقيظ شديد ، وبحلقه يكاد يحترق من شدة العطش • التفت فوجد غرفة ، وفيها رجل ينام على ظهره ، فوقه فانوس صغير ذو ضوء شحيح ينير وجهه ، وبالقرب منه ، في صحن كبير ، دراقة غزيرة العصارة ، بانت فيها عضة خفيفة ، كأن أحدا هم بأكلها ثم أشاح • مد الولد يده الى الدراقة ، وحملها الى شفثيه • أي مذاق ! أي طعم لذيذ ! لكنها لم تبد له ثمرة ! فقد شعر بجسمه يتململ ، مما لم يعرفه من قبل ، وراح يصرخ :

— أين أنا ؟

فاستيقظ البستاني العجوز وهرعت زوجته على صراخه ، وأخذتهما الدهشة الكبرى : ها هوذا ولدهما !! وها هو يراهما ويعرفهما و... يشهق باكيا •

عند هذا المشهد انسدت الستارة •

من عادة الناس ، في مثل هذه الحالات ، أن يفعلوا مع

المشاهد بكل سذاجة ، وأن يتقبلوا التسلية التي في المشاهد ،
مترادفة مع الحكمة العميقة فيها .

تلك الليلة ، كان جميع الحضور منشرحين للمسرحية التي
شاهدوها . وطوال العرض ، كان العمدة فاعرا فاه مذهولا ، فيما
الكاهن يتشاءب من الضجر ، والطبيب والكاتب العدل منشرحان،
والملاح كاد أربع مرات ينهض ويعتلي المسرح هاجما على الساحرة
يريد أن يخنقها جميع العجر ، وفي كل مرة كان الجميع يهدئون
من غضبه .

أما الحضور من الاهالي فكانوا مسرورين جدا ويصيحون
خلال المسرحية تأثرا او حماسا . وأما الاولاد فكانوا صامتين
بعيون مفتوحة كبيرة ، كأنما المشاهد خدرتهم ، أو كأن ساحرا
جمعهم كلهم في شبكة واحدة من السحر اللذيذ . لذا كانوا ، على
مقاعد المدرسة حيث اصطفوا ، يتنهدون معا أو يضحكون معا ،
متلاصقين متلازين ، وجامدين في أماكنهم . وكانت بينهم فتاة
وردية الخدين ، عريضة الفم ، خضراوية العينين ، صهباء الشعر
مجدولته ، تتدلى منه عقدة على رقبتها . انها ياقوتة ، مبهورة الى
أقصى درجات السعادة والفرح والخوف والحزن ، لشدة ما كانت
منصرفة الى متابعة المشاهد .

بعد انسداد الستارة ، ساد صمت عميق . وعاد الصوت
المتهدل العجوز الذي كان صدر قبل ارتفاع الستارة ، يلقي
خاتمة المشاهد :

— أيها السادة ، انتهى العرض . وها كلبى الان سير بينكم ليجمع النقود منكم ، فعاملوه بالحسنى لانه رفيق طرقاتي الوحيد ، ولان اولادي لم يعودوا في هذا العالم . وكما رأيتم في الاسطورة ، كان عندي حفيد سرقة لي العجر ، وها أنا منذ خمسين سنة أعمل على ترقيص الدمى في قراكم . بعدي ، لن يجيئكم أحد برقصات الدمى ، وقد تكون هذه هي المرة الاخيرة أجيء فيها الى قريتكم ، لان الشيخوخة تثقل علي ولن تكون لي طاقة العودة اليكم في العام المقبل . لذا ، هذا المساء أودعكم الوداع الاخير ، فالرجاء أن تسخوا على كلبى المار بينكم ببعض النقود .

عندها بكى الحضور ، رجالا ونساء ، فيما عطس العمدة .
وبصوت واحد ، قالت الفتيات :

— أيها العجوز ، اظهر لنا ، بعد ، ولو مرة واحدة .

كان صوتهن ناعما وحنونا ، حتى جاء العجوز من وراء المسرح ، فتماوجت الستارة ، وبان من فتحتها رأسه الاصلع المتطاوول الذي يتوجه اكليل من الشعر الاشيب يمتزج بلحيته الطويلة المنسدلة كخيوط الثلج . كانت عيناه صافيتين وبريئتين ، حتى اذا ظهر آثار ثلاثئة شهقة حزن من الحاضرين . كان يلبس معطفا قديما ، وشالا حول عنقه . وبدأ أن هذا المهرج فقير ومهموم ، لدرجة أنه بظهوره أشاع جوا من الصمت والحزن . مع ذلك لم يكن يتسم ، ولا كان يحاول أن يثير الاعجاب ، لكن البراءة كانت بادية على وجهه .

وقف هكذا لحظات أمام جمهوره المذهول الصامت حتى
سمع الجسيع شهقة ولد فوق المسرح ، بين أوراق شجرة الدردار
على الغصون الخفيضة • التفتوا ، فاذا هو : گاتزو ، يبكي بكل
الفهر الذي في قلبه ، خجولا من أن يكتشفه الثلاثمئة شخص
مذهولين لبكائه • وعلى المسرح ، كان العجوز ينظر اليه بذهول
شديد لرؤية حفيده الضائع يهبط عليه فجأة من السماء •

صرخت النسوة :

— إنزل ، إنزل أيها الصغير • سنسقيك نبیذا معتقا •

لم تبدر من المهرج العجوز أية إشارة ، بعد هذا الاتفعال قطع
عليه كل قدرة على الحركة لشدة المفاجأة • كان يتأمل حفيده
متدلي القدمين من بين أوراق الشجرة ، فيما گاتزو ، من أعلى
الشجرة ، يتطلع هو الآخر بجده ، و ... يبكي •

عند جذع الشجرة ، كان الوجهاء : العمدة ، الكاهن ،
الطبيب ، الكاتب العدل ، يشكلون حلقة ويبتسمون لتشجيع
الولد على النزول من الشجرة •

وبعد وقت غير طويل ، هم بالنزول فبادرته النسوة المسنات :

— على مهلك ، إياك أن تقع •

وأخذ الرجال يهتفون المهرج العجوز بهذه المصادفة •
أحدهم قال له :

— ما شاء الله ، أخف من سنجاب •

وحين قفز كاتزو من الشجرة وجاء أمام العمدة ، ارتاح
الجميع بعدما حبسوا أنفاسهم * وكان العمدة من الطيبة بحيث
التفت الي الجميع وقال :

— أنا أقدم النيذ المعتق *

وسرت بين الحضور تمتات ارتياح ، فأردف العمدة :

— هلموا بالعودة * وبالترتيب : الصغار أولا ، ثم الفتيات ،
ثم النساء ، وأخيرا النახبون *

وهنا أفاق الناطور من غفوته وسار حاملا طبله في مقدمة
الموكب ، ووراءه العمدة يمسك العجوز يميناه ، ويسراه
كاتزو الهادي *

خلفه ، في صف واحد ، الوجهاء الخمسة : الكاتب العدل
الكاهن ، الطبيب ، الملاح ، وبائع التبغ * بعدهم مشى أهل القرية
في مقدمتهم الصغار ، وبينهم ياقوتة بعينيها الزرقاوين وخصلة
شعرها المربوطة ، وهي تتطلع أمامها بخطى جادة واثقة *

في نهاية الموكب ، كان المسنون * وفي طليعته كان الناطور
يضرب على طبله بيديه الهرمتين ، في مشية عسكرية وضربات
عسكرية كان يترنح لها الجمع كله *

هكذا رحت أتأملهم يسرون أمامي ، مرددين بأنهم منذ
خمسین عاما لم يشهدوا احتفالا كما هذا العام *

عندما انتهى آخر صف من المرور ، رأيت الكلب ، في خطمه
الصحيفة الخشبية الصغيرة الذي اعتاد أن يجمع بها النقود ،
ويسير مترنحا هو الآخر في آخر الموكب .

وبعدما مر الكلب ، أحسست أنني بت وحدي تماما . لم
يكن أحد لاحظ وجودي أو تنبه لي ، ولا حتى كاتزو الذي كان
يسير ممسكا بيد العمدة في احترام وسعادة وغبطة . تراه رأيي ؟
لا أظن أنه رأى أي شيء أو أي أحد ، فهو الليلة ملك الموكب .
لكنني أنا رأيته جيدا ، ولأنني أحبه كان قلبي مغمورا بالحزن ،
فامتلات عيناى دموعا صامتا .

لم يبق من الاحتفال الا مقاعد المدرسة فارغة والمسرح
الصغير القماشي بستارته المتروكة منسدلة وعليها الحمار الذي
يقرأ .

أخذت المصاييح والفوانيس تنطفئ تدريجيا في أغصان
شجرة الدردار ، وفي قبة السماء العالية كان القمر بدأ يهبط في
طريقه الى التلال .

احسست انى وحيدا وحزينا ولم أعد أدري ماذا أفعل .

خلف المسرح المتروك ، كانت شمعة تحتضر بشعاعات نورها
الآخيرة ، بعدما نسي المعنيون أن يطفئوها ، فبقيت مشتعلة في
ارتجاف ، يتلأأ نورها الشاحب على الجوار بارتعاش . شدني

منظرها ، وهممت بالتقدم نحوها ، حين فوجئت برجل طويل نازل
ينتصب فجأة أمامي خلف المسرح ، وهو يتكئ على عمود
الستارة ويتفحص المكان مليا .

وما هي حتى رأيته .

إنه بارغابو .

لم يبدأ أية حركة .

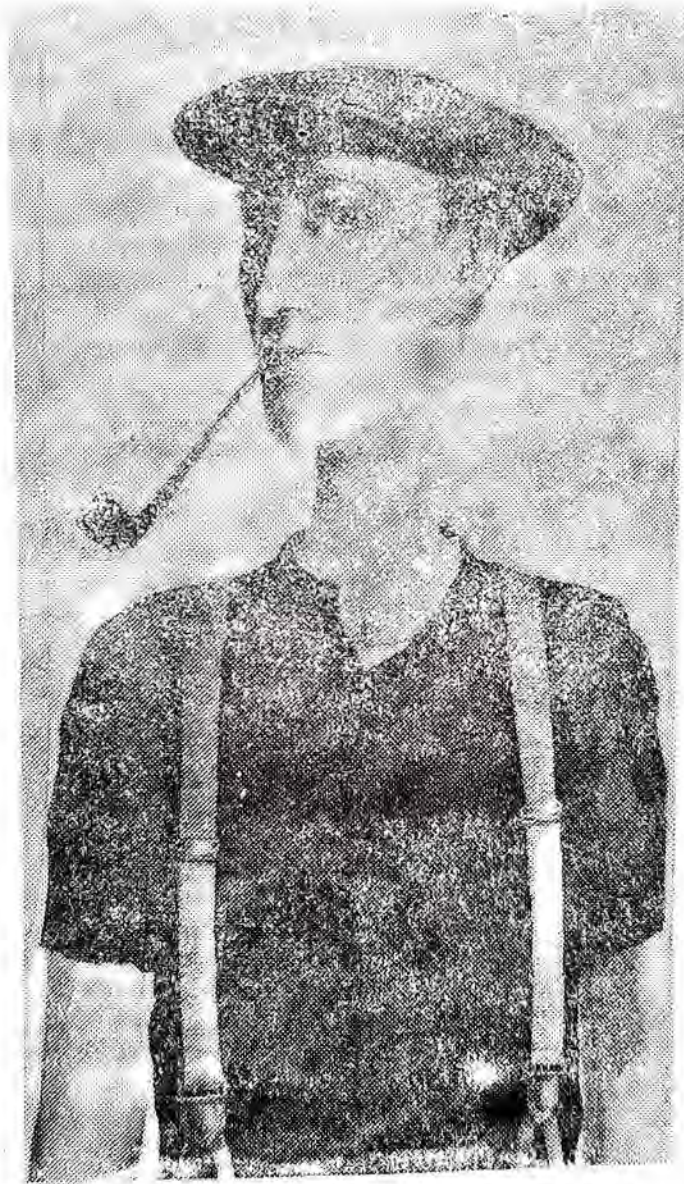
فاستغللت هدوءه ، لذت بالفرار .

الفصل الخامس

اللقاء بعد الفراق

اللقاء بعد الفراق

لا أعرف كيف بلغت المرسى ، لشدة ما ركضت ومشيت وأنا
لا اعني ولا ألوي على شيء • ولدى وصولي قرب المياه ، أجتاحني



شعور غريب بالصمت والوحدة • كانت المستنقعات جامدة تماما
كأن مياهها رصاصية وعلى وجهها غطاء شفاف من الرطوبة يغمر

المشهد الحزين الذي كانت تصل اليه من بين القصب نجمة وحيدة .
أما الفرس فكاننا ذهب يزور عوالم أخرى . وكانت الجزيرة ،
وسط تلك المياه الحزينة ، كأنها سفينة ظلمة ، أحافتي حتى كدت
أخشى الاقتراب من ضفتها حيث يرسو المركب . لكنني سيطرت
على شجاعتي وحللت المركب ، ثم استخدمت العصا لابتعد به عن
اليابسة ، وأنا أفكر : « الافضل والامر هكذا ، أن أسير بالمركب
يعيدا » . لكن المركب لم يكن يسير لان التيار كان معدوما في
تلك المياه الراكدة . وبعد مسيرة قصيرة ، توقف المركب كليا ،
فتددت في قعره ونمت .

لم يعد لي إلا أن أنتظر قدرتي ، وأنا عارف بأن هذه هي
نيلتي الاخيرة من النوم في عالم المياه ، لذا شئت أن أنامها كما نمت
الليالي السابقة ، ممددا على ظهري أتشوق الرائحة الليلية للمياه
الحلوة التي كانت تغلفني ، رغم الكوابيس ، بالهناء والراحة .

عندما استيقظت ، كانت الشمس علت في قبة الفلك ، وشعرت
قبل أن أجيل عيني ، بأن أحدا معي في المركب . ثم احسست على
وجهي بعرق رائحة القهوة المدخنة والخبز الساخن والغليون
المشتعل . فقلت قبل أن أفتح عيني تماما :

— بارگابو ، متى نطلع ؟

— بعد قليل . نشرب القهوة ، ونبحر .

نهضت فرأيت بارگابو جالسا على المقعد ، في فمه غليونه

الطويل ، وهو مقرنص امام موقدة (حملها معه لا ادري من أين)
يسكب القهوة الساخنة في وعاء فخاري بكل عناية • فقال :

— تعال ، خذ رشفة قهوة • ستدفئك وتنشطك في قيامك
من النوم •

وأخذ يشرب هائثا ، فيما يدها على الخبز يتناول طعاما •
وبالفعل ، تفحتني القهوة ببعض النشاط ، فسألت :

— وماذا عن العمة مارتين يا بارگابو ؟

— تنتظرك •

— و ... هل بكت ؟

— بكت •

وبعد قليل أضاف :

— ووالداك يعودان الى المنزل مع أواخر هذا الاسبوع •
فتمتتم في سري : « الحمد لله » • وبدأ أن الامور
ستسوى تلقائيا ، فتجرات على السؤال :

— هل خفت عليّ في غيابي يا بارگابو ؟

تطلع بي مذهولا مستغربا لكنه لم يعلق ولا بكلمة • ففهمت
من نظراته وموقفه أنه مسرور من عملي ثم أعلن عن الاقلاع ،
فتنبهت عندها بأنني في مرسى غير الذي كنت فيه قبل يومي • كنا
على الطرف الاخر من تلك الناحية المعزولة ولا يفصلنا عن مجرى
النهر الا بحيرة شاطئية صغيرة • كنت أرى عبر الاسل انسيابه

وبياره السريع * والتفت فاذا بجانب مركبنا زورق صغير بسنة
ألواح وبدون مقعد انما بمجذافين كبيرين وصار كبير * قال
لي باركابو :

— هيا انتقل اليه * سنترك مركبك هنا فهو كبير وثقيل
ولا يمكنه أن يسير في تيار النهر القوي * سأعود وأخذه لك
لاحقا *

وانتقلت الى الزورق الصغير بدون حماس كبير * صرخ
لي باركابو :

— إبق في الامام *

فامتثلت ، وعلق باركابو :

— الريح مؤاتية *

ثم رفع الشراع ، وكان عتيقا مرقعا ، فما لعب به الهواء حتى
انتفخ ، وتحرك الزورق متماوجا على وجه المياه ، مبتعدا عن
الشاطئ وموغلا في الماء *

كان باركابو عاري الصدر ، ممسكا بالمجذافين ويعمل
عليهما معا ، فكان الزورق أحيانا يتمايل حتى مستوى الماء فتتبلل
ذراعي * وخفت أن يميل الصاري ، لثقله ، بالزورق لصغره فينقلب
في الماء * لكن باركابو لم يكن ليحمل هذا الهم ، بل كان يجذف
بقوة والزورق يمتزج مياه النهر بثقة ، حتى قطع الجزيرة السوداء
والتيارات الصغيرة والمياه الهادرة *

كل ما حولي كان يوحي بالسعادة والفرح : بارگابو ،
الزورق ، الهواء النهرى ، الفلك الممتلىء بالعصافير ، اغبرار
المساحات على اليابسة حول الضفاف وقد انتشر عليها نور الشمس
الصباحية فجعلها تتماوج بين صفحة المياه وصفحة الفلك في
ازرقاق جميل .

وسط هذا المنظر ، نسيت أحزاني وآلامي ، واستسلمت
للجواء يلفح وجهي .

نحو الظهر ، بلغنا الضفة اليسرى حيث تناولنا الغداء .
وهناك اصطاد بارگابو بطة بواسطة بطيته ، وهي بندقية طويلة
تستعمل لصيد البط البري ، وتعمل على الصوان . وحين صدرت
الطلقة ، تركت خلفها في الفراغ خطا طويلا من الشرارات الحمراء
وكثيرا من الدخان عبت منه رائحة البارود والنار .

تلك الليلة أمضيناها في العراء .
وفي اليوم التالي أكملنا إبحارنا ، قريبا من الضفة ، في مياه
هادئة . ونحو المساء ، أطللنا على الجزيرة . كان بارگابو قليل
الكلام . لكنه التفت وقال لي :

— الجزيرة باتت أمينة . مشطناها و . . . خافوا فهربوا .
قال ذلك ولامس بندقيته ، ففهمت ، وسألته :
— أمينة تماما ؟

هز برأسه بدون أن يجيب . وفهمت أنه يخفي شيئا . لكنني
لم أجرؤ على الاستفسار أكثر .

تجاوزنا الجزيرة ، وانعطفنا حتى بلغنا الضفة • وما هي حتى
بلغنا منزلنا قبيل هبوط الليل •

عبرنا الحديقة ، فوجدنا تحت عريشة الرواق مصباحا مضيئا
فوق الطاولة التي مدت عليها المائدة لثلاثة أشخاص ، مع ابريق
ماء والشاي وسلّة خبز أصهب • ومن باب المطبخ المفتوح • بان
الموقد وعليه مقلتان وقدران • وأمام النار العمة مارتين جالسة في
مقعد قديم ، يمرىولها الابيض ، يداها على ركبتيها ، صامتة جامدة
تراقب الطعام على النار • كان وجهها يوحى بالطمأنينة ، وهي
بانتظار الولد الغائب • ربما كانت كل مساء تشعل النار هكذا
وتتظر هكذا ، وتبىء المائدة بانتظار عودته •

وبعودتي ، أحسست أنها ملاك البيت ، أمام هذه النار
وهذا الطعام الشهي الرائحة •

مع ذلك لم أتمالك من الأجهاش بالبكاء لدى دخولي • وإذا
سمعتني ، استدارت وقالت بهدوء :
— تعال يا حبيبي ، تعال كي أقبلك •

فدخلت المطبخ باكيا ، فيما بقي بارگابو على العتبة ، بندقيته
على كتفه • ارتميت على صدر العمة مارتين ، وهي تهديء من
بكائي بكلمات خنونة ، فقبلتني وقبلتها ، واحسست عندها بجوع
شديد ، زاده اطمئناني وما كان يعبق في شمي من رائحة زكية
للطعام الى جانبي •

للطعام الى جانبي • جلسنا الى المائدة وتناولنا العشاء بصمت تام •

بعد ذلك انسحبت الى غرفتي للنوم ، فيما بقي بارگابو
والعمة مارتين يتبادلان كلاما بصوت خفيض لم اسمعه من غرفتي
فوقهما ، مع أنني أرهفت سمعي ، لاني كنت واثقا من أنهما كانا
يتحدثان عني . ثم ما لبثت أن غفوت ، وأنا مطمئن اليهما
يحرسان نومي .

عاد والداي ، بالفعل ، في اواخر ذلك الاسبوع . وكما
توقعت ، لم تخبرهما العمة مارتين عن عملية هروبي ، لكنها شكنتني
كالعادة كي لا تتغير عاداتها بالتشكي . ومما قالته :

— لم ينم كثيرا . كان يقرأ كل الوقت ، وهذا ما كان
يجعله عصيا .

فوافق أبي بسذاجة :

— فعلا ، إنه يقرأ كثيرا .

ثم التفت إلي وزجرني :

— يجب أن تلهو قليلا يا بني . في سنك يجب ان تخرج الى
الطبيعة .

جس لي نبضي فوجده متوترا ، وتفحص لساني فوجده أبيض ،
مما أذهل أمي فعلق أبي :

— لا تقلقي . هذا من نتيجة الامساك ، لان الولد يبقى كثيرا
جالسا ولا يخرج .

وذهب أبي فأحضر لي سنا (جنس جنبة تستعمل ثمارها
للاسهال) مما اضطرني أن آخذه غصبا عني انقاذا للموقف ، وهي
عقوبة غير قاسية .

ولكي تخفف عني العمة مارتين ، جاءتني بأقراص حلوى
كانت حضرتها خلسة لي .

كان من مفعول تلك الجنبه ، لا ان تنعشني بل أن توهن
قواي ، مما سبب تفسيراً مختلفاً من أهل البيت . أبي وجد ذلك
خللاً في الكبد ، وأمي رأت أن الخلل في الطحال ، والعمة مارتين
شخصته في الرئة مشددة :

— منذ فترة وأنا لاحظ الصبي يتنفس بصعوبة . اتبهوا له
جيداً تكتشفوا ذلك .

وبالفعل كان تنفسي غير مستريح ، انما أنا نفسي لم أكن
أدري لماذا .

بعد أيام أعادوا إلي كتبي خشية أن يكون انقطاعي عن
المطالعة هو سبب وهني . لكنني لم أقرأ فيها أبداً . كانت
تضجرتني .

مر حزيران وبعده تموز ، ومن الثمار الى الحصاد ، في طقس
صيفي جميل جداً ، صفت صباحاته ورقت شمسها واحلوت
أمسياته وراقت ليلاته . ثم جاء آب ، وكان الحر لطيفاً فلم تشح
الينابيع ولا حتى يوماً واحداً .

سوى أن وهني لم يفارقني . وكان ضجرٌ لم أجد له تفسيراً
يحتلني بقوة . بدت لي الايام طويلة ، فلم أكن أدري كيف
أصرفها بين البستان وتحت الاشجار . وأحياناً اذ أضجر من البقاء
في البيت ، كنت أخرج الى الطريق ، منتظراً بدون فرح ولا أمل ،

وصول أحد ، أي أحد : ساعي البريد ، حيوانا ، كلبا ، أو ربما
ذاك الحمار ***

حتى بارگابو لم يعد يأتي الى زيارتنا * ما ترى حل به ؟ لم
يعد أحد في البيت يتحدث عنه * كان غيابه غريبا * مع أنه في أشهر
القيظ خاصة كان يحمل الينا السمك ، على الاقل مرة في الاسبوع *
كنت أفكر احيانا به ، مما يحزني ويحجب عني النوم ليالي طويلة *
وازداد حزني في أيلول * حتى القطاف لم يهيجني كما من
قبل ، رغم وفرته عامئذ أكثر من أي عام آخر *

وجاء تشرين شحيح الامطار ، فلم يهدر النهر كما من قبل ،
ولا اجتاحت مياهه أراضينا كما من قبل ، مما أتاح حراستها بأمان
وأفرح العائلة بدون أن يخفف من حزني الذي ، حتى في فترة
الميلاد وبردها القارس ، لم أشعر بالبرد ولا بالفرح *

مر ذاك الشتاء عليّ قاسيا وطويلا وشديد الكآبة *

غالبا ما كنت أفكر بگاتزو : أين يكون ؟ أحيانا ، مع
هبوط المساء ، كنت أراقب الطيور تمر بين الغيوم العالية ، اسرابا ،
فتشير في طيرانها بعض احزاني *

وكان أهلي يحزنون لحزني ، ويجزعون لفشلهم في اعادتي
الى الفرح رغم جميع محاولاتهم المختلفة والعديدة *

وعاد الربيع بنسيمه العليل وسنوتواته الراجعة الى المواسم ،

فكنت اتنهد في شعور حائر بين الحزن والهناءة • وذات يوم قالت

العمة مارتين :

— إنه يتنهد ، لكنه ربما تنهد استقبال الربيع •

ولكي تزداد سهرا علي ، طلبت أن أتنقل الى الغرفة المحاذية لغرفتها في الطابق الارضي ، فتم ذلك • وأحيانا في الليل ، حين تسمعي أتنقلب في فراشي لتتأكد اذا كنت صاحيا أم أنني أهذي في حلمي • وأحيانا ، كي لا أوقظها لان نومها كان خفيفا ، كنت أجهد ، حين ينتابني الارق ، أن أبقى جامدا في سريري فلا أتحرك •

وذات ليلة ، حلمت الحلم التالي :

كنت في أول نومي ، لا غافيا تماما ولا صاحيا تماما ، بدليل أنني كنت أرى نجمتين بعيدتين من نافذتي المشقوقة فوق سريري • ثم ... خيل لي أن النافذة تنفتح تدريجيا لتظهر منها سماء مفتوحة وسبعة ممتلئة بنجوم عديدة تدخل غرفتي ، كثرت حتى امحت بدخولها الجدران فبت كأنتي سابح في الفضاء • وتدرجيا تكون حولي مشهد يعج بالكواكب المتلألئة على صفحة نهر ليلي مشعشع ، تشتعل في عمقها نيران غير منظورة ، يتناهى وهجها الشاحب على عالم كامل من النباتات والحيوانات المائية ، وبينها رحت أتبين تنفس جذور الجزر الغارقة عميقا عميقا في قعر المياه • ثم أخذت وحوش تظهر من تلك الوهاد المجهولة ، لبعضها علامة النار الخضراء والذهبية على أعلى جماجمها المكلفة بالشوك • كانت تتحرك بين الطحالب العملاقة • وأحيانا يهب تيار فيجرف مخلوقات

عجيبة ذات أشكال مخيفة تضيء فجأة ثم تختفي بسرعة ، وتبقى خلفها لألآت نجوم غريبة .

كان هذا الحلم يقض مضجعي ، وأرتعد للخروج من تلك الامكنة المخيفة غير الحقيقية التي تهاجمني فيها وحوش وهمية . ويبدو أن رغبتني كانت شديدة ، فأخذت تلك الحيوانات المتوحشة المخيفة تخرج من حلمي تدريجيا ، لتحل مكانها رؤى أليفة ، كسماء صباحية صافية في فجر جميل ، ومشهد الربيع في الريف الساكن يهل على صديقي النهر . وهناك ، في هذا المشهد ، كنت أتبه فرحا جذلان في أماكن أعرفها : جزيرة القصب ، الجرف الصخري ، غابة السنديان . وفي هذا المشهد ، كنت منتشيا بالعصافير والازهار والحياة الحرة ، وخاصة بذاك الجون الصخري الصغير الذي كنت أمضي فيه أوقات جميلة أتأمل مياهه الهادفة وصخوره المهيبة . كانت مياهه من الصفاء بحيث يعبرها النور كما في الهواء، ويان عمقها ضاحكا لنور الشمس، وعلى الرمل النظيف ، مجموعات من الحصى الصغيرة الرخامية الزرقاء او الوردية . وبين الصخور ، كانت المياه تتلاطم فتحف بها وتعود الى مجراها الكبيرة ، كأن ذاك المكان المجوف هو مصب مياه الامطار وذوبان الثلوج شتاء عن القمم العالية . وكانت الحيوانات المائية كذلك ، تجد في مأواها ، كأنه نوع من حديقة مائية لالعابها وتساليها ، في مأمن من افتراس الحيوانات المائية المفترسة .

تحت باقات الاعشاب المائية ، كانت حشرات صغيرة تتنقل
وتتحرك هي الاخرى في مأمن من كل خطر ، فتزيد تماوج المياه
تمويجات جديدة ملونة ومتماوجة بجمال وبهاء * ومن حين لآخر ،
تظهر ضفدعة صغيرة خضراء ألقت هذه الامكنة ، فتغوص ،
فاتحة قوائمها على أوسعها ، حتى تبلغ الرمال في العمق الصافي
الشفاف ، ثم تعود لتعوم نقطة خضراء جميلة على صفحة المياه
المزروقة ، فيظهر عنقها المتناسق وعيناها اللامعتان ، دون أن تبدو
خائفة من رؤيتي أمامها جامدا مدهوشا بدون حراك *

ثم غاب عني كل شيء في المشهد * ويبدو أنني ، عندها ،
غفوت تماما *

لا أدري كم كان مضي عليّ نائما ، لكنني استيقظت على
صوت نقر خفيف عند نافذتي * لم أخف ، لكن قلبي أخذ يخفق
بسرعة الدهشة ، وأنا أتمتم تلقائيا :

— بلى ! هذا هو !! لقد عاد !!!

قفزت من سريري وهرعت الى النافذة لهيفا :

— كاتزو؟؟ أهذا أنت؟؟؟

واذا بصوت هامش يتمتم اسمي ، صوت أجش أعرفه ،
بادرني :

— عندي الكثير أرويه لك *

في هذه اللحظات ، تنهدت العمة مارتين في غرفتها ، فبادرت
كاتزو :

— مهلا ، الافضل لنا أن نخرج ونحدث عند حافة البئر *

فقزت من النافذة ، وتوجهنا معا الى حافة البئر • كان الطقس لطيفا ، والقمر مرتفعا في قبة الفلك لطيفا معطرا •
هناك ، بدأ گاتزو يتكلم ••
روى لي حكايته كلها •
كنت أصغي اليه بكل انتباه وتأثر • فجأة ، توقف عن الكلام ، فاستفهمت :

— وبعد ؟ ماذا بعد ؟

أجاني بايجاز :

— لقد توفي العجوز •

أمسكت بيده مواسيا • وفي هذه اللحظة ، فتحت العمة مارتين تدريجيا مصاريع النافذة • لم أدر اذا كانت رأتنا ، لكنها نادتني قائلة :
— ياسكاليه ، مع من تتكلم ؟

نهضت بصورة آلية ، ودخلت المنزل ، وأنا لا أزال ممسكا يد گاتزو ، فاندعشت العمة مارتين قائلة :

— هه !! من الذي معك ؟

— إنه ••• صديقي گاتزو •

تنفست عميقا وأردفت :

— رائحته بريئة •

فجرؤت على الجواب :

— إنه وحيد في هذا العالم يا عمتي •

تمتت كلمات لم أفهمها ، ثم قالت لي :

— فليدخل • وغدا ننظفه بالفرشاة من رأسه حتى أخص
قدميه •

ودخل گاتزو ، فأضاءت العمة مارتين شمعة ، وتفرست
بگاتزو جيدا ثم أضافت :

— يبدو ولدا صلب العود • ويبدو جريئا وشجاعا • سنعرفه
الى أبيك وأتولى تقديمه اليه •

لا أدري ، حتى الان ، ما الذي قالته لأبي لكن أبي رق لحاله
واستقبله بحفاوة •

ومنذ ذلك اليوم ، لم يعد گاتزو صديقي • صار أخي •
أما حكايته التي رواها لي ، فاحتفظ بها لنفسي •
وربما يكون لي أن أرويها لكم • ذات يوم •

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق
(٢٢٠) لسنة ١٩٩١

دار الحرية للطباعة — بغداد
١٤١١هـ — ١٩٩١م



دار شفاة الأطفال

دار الشفاء
بغداد

السعر ٢٥٠ ر١ دينار